دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

الحدود المتسعة للإيمان بالله

ومقالات أخرى

الأب متى المسكين

كتاب: **الحدود المتسعة للإيمان بالله**
ومقالات أخرى
المؤلف: **الأب متى المسكين**
الطبعة الأولى: مجموعة مقالات كُتبت عام ١٩٥٧ ونُشرت
لأول مرة كمقالات في مجلة مرقس عام ١٩٨١
تُنشر لأول مرة بين دفتي كتاب عام ١٩٨٨
مطبعة دير القديس أنبا مقار ــ وادي النطرون
ص. ب. ٢٧٨٠ القاهرة
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٨٨/٢٦٣٠
رقم الإيداع الدولي: ٥ ــ ٠٨٠ ــ ٤٤٨ ــ ٩٧٧
جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

المحتويات

	صفحة
١ ــ الحدود المتسعة للإيمان بالله	٥
٢ ــ رؤيا متفائلة لموازين الله	١٦
٣ ــ المعرفة والخطية	٢٨
٤ ــ الصراع العقلي ضد الخطية	٤٦
٥ ــ كيف سيدين المسيح المسكونة بالعدل ؟	٥٢

— ١ —

الحدود المتسعة للإيمان بالله (*)

□✿□✿□

- المؤمن ورؤيته لقوى الطبيعة المدمّرة بجبروتها وشدتها .
- الضرر والخسارة وقانون النمو العام : « حبة الحنطة » .
- عقل الإنسان وحدوده في اكتشاف حكمة الله في الخليقة ، ونموه في ضبط ثورات الطبيعة .
- الحرية الظاهرية لعقل الإنسان ، وقوة الله الضابطة له .
- لماذا لا يعاقب الله الملحد والمجدّف بالمعجزات ؟
- ما هي الحكمة الإلهية وراء سماح الله بالاتجاهات السلبية التي تنشأ في الكون ؟
- السؤال الذي لم يستطع العلم حتى الآن أن يرد عليه !
- مركز الإيمان بالنسبة للتفكير ، وسعادة الإنسان الحقة !

□□□

أن نـؤمـن بـالله ، فنحن نؤمن أنه قادر على كل شيء ، وأنه حكيم ، وأنه عادل ، وأنه رحيم ، وأنه محب .

والإيمـان بـالله يـسـتـلـزم أن نـثق بكل صفة من هذه الصفات ونعمل بها في حياتنا . والإيمـان لـيـس ضرورة تـعسفية لإرضاء سلطان الله ، ولكنه هو سر سعادة كل مَن يؤمن بمسرة وعن رضى . وإن كان الله قد حتّم بالإيمان على البشر ، فذلك بدافع أهم صفة من صفـاتـه وهي المحبة ، لأنه إذ يحب الإنسان كخليقة ممتازة عنده ، لذلك يدعوها في إصرار المحبـة أن تؤمن به حتى تسعد بوجوده ، وتكمل القصد المبارك الذي خلقها من أجله . فالله خلق الإنسان ليسعد بصفات الله التي كلها خير وصلاح .

(*) رسالة كُتبت عام ١٩٥٧ ردًا على سؤال .

وواضح الآن كل الوضوح أنه لما انحصر الإيمان وضعف في قلوب الشعوب ، بدأت تكثر أحزان الإنسان ، و بدأ شبح الحرمان والمجاعات والحروب والدمار يزحف على المسكونة كلها . وسوف يتأكد العالم كله ، في لحظة ما ، أنه من المستحيل أن يسعد الإنسان بدون الله .

الإيمان بأن الله قادر على كل شيء :

هذه هي الصفة الأولى ، لا بالنسبة لله لأننا لا نعرف ترتيب صفات الله في ذاته ، ولكن بالنسبة للإنسان الذي يحيا في عالم مادي تتحكم فيه قوى طبيعية هائلة .

ونحن يجب أن نؤمن ، بادىء كل ذي بدء ، **بقدرة الله على كل شيء** ، لأن الله هو هكذا بالفعل ، وحتى لا ترعبنا قوى الطبيعة كأنها ذات السلطان الأعظم علينا من جهة حياتنا وأمننا وسلامنا . فالإنسان الذي يؤمن بتفوق الله على قوى الطبيعة يرتاح جداً ، وخصوصاً إذا واجه شدتها عياناً أو اطّلع على جبروتها الذي تعلنه في أماكن عديدة من العالم ؛ فالزلازل المخربة والبراكين والعواصف العاتية والفيضانات المخيفة والأوبئة الفتاكة لا يمكن أن تُنزل الرعب في قلب إنسان يؤمن بتفوق قوى الله على قوى الطبيعة ، لهذا فهو في أوج ثورتها لا يرتاع ، عالماً بأن الله ضابطٌ لجميع قواها في مسار لا تتعدّاه ، وأنه يضبطها بحكمة ليقودها حسب مشيئته المعيَّنة والقصد المبارك الذي خلقها من أجله . ومهما ظهرت آثارها المخربة ، فالغاية التي تستقر عليها بعد ثورتها تحمل حتماً توجيهاً جديداً للساكنين على الأرض للإرتقاء إلى حالة أفضل .

وحينما نؤمن بقدرة الله الكلية وحكمته التي تسيِّر أمور العالم كله ، نطمئن أنه لو أصاب العالم ضررٌ ما وأصابنا نحن جزءٌ منه ، فالخير الذي سيتمخض عن هذا الضرر كفيل بأن يوازن الخسارة بل و يزيد بالقدر الذي يكون فيه ارتقاء وإسعاد ملايين عبر الدهور عوضَ خسارة ألوف في زمن محدود .

وهذا قانون تسير عليه الخليقة بكل أعضائها ، وهو قانون النمو العام الذي تمثله حبة

الحنطة حينما تموت لتعيش مئة حبة ، أو حينما تتمخض المرأة بآلام شديدة ليخرج مولود جديد . هكذا يؤكّد القديس بولس الرسول أن الخليقة تئن كلها وتتمخض معاً بانتظار تبني الله للإنسان في وضعه الجديد كلية جسداً وروحاً ، هذا الذي نترجّاه بفارغ الصبر (رو٨: ٢٢و٢٣).

وكان ممكناً أن يتلافى الله كل خسارة من كل نوع في كل الخليقة ، ولكن كان لابد أن يبقى كل شيء ثابتاً في ذاته لا يتغير ، فكان آدم يبقى آدمَ ، وحبة الحنطة تبقى حبة الحنطة وحيدة وحدها ، وكل شيء يُخلق يبقى كما هو غير قابل للنمو ، لأن التويشمل ولابد حالة انسلاخ من دور إلى دور ، أي يشمل عملية موت وحياة .

كذلك الأرض كان يمكن أن تبقى بلا زلازل و براكين وفيضانات ، ولكن كان يلزم حينئذ أن تقف عن الحركة وتُمنع عنها الحرارة كلية ، لأن بهذين العاملين تنشأ حتماً البراكين والزلازل والفيضانات والعواصف . إذن ، فالخير الجزيل الذي يتمتع به الإنسان ، سواء من نمو في جنسه وفي الخليقة الحية الأخرى ، أو من الحرارة التي يستخدمها في كافة شئونه ، أو من الحركة التي يحس بواسطتها بكيانه ووجوده ، هذه كلها لابد تشمل قانون الخسارة والربح ؛ ولكن دائماً أبداً : خسارةٌ أقلُّ وربحٌ أعظمُ ، أي حركةٌ نحو الأفضل والأعظم ، أي حركة نحو الله !!

وهكذا فإن إيماننا بقدرة الله الكلية وحكمته يزداد حينما نرى أن عمله في الخليقة يزداد ناحية الربح بشكل واضح ملموس على مدى السنين والأجيال .

فالإنسان ــ آدم ــ وُجد فرداً واحداً وحيداً ، وها الآن يدُبُّ على الأرض ألفا مليون إنسان و يزيد ، فالموت الذي ماته آدم انبعثت منه حياة لا يحصرها حدٌّ ولا عدٌّ ، إذا ما أحصينا الأجيال كلها . والفيضانات التي قتلت ألوف الناس فيما سلف من الأزمان ، نجدها الآن وقد أخصبت ملايين الأفدنة من الأراضي لتعول ملايين البشر على مر الأجيال . والزلازل التي خرَّبت بيوتاً عتيقة كثيرة ، نشَّطت ألوف الأيدي العاملة لبناء

مدن حديثة . والبراكين التي أهلكت أرواحاً ومدناً ، أضافت إلى باطن الأرض استقراراً أكثر لضمان سنين مديدة لسعادة ملايين عديدة .

وهكذا نستطيع أن ننتقل ونمتد لنقول إن الخسارات العارضة التي تواجه الإنسان في الطبيعة هي في صف قدرة الله الكلية ، لأنه بالرغم من حدوثها بأشكال مفزعة ، إلا أنها كلها تتحول إلى خير أعظم بواسطة حكمة قدرته الفائقة ، حتى إننا نستطيع أن نقول إن قدرة الله الكلية ، وهي تستلزم حالات سلبية أشد ، نلمس فيها قدرة الله الأقوى على تحويلها إلى خير أكمل . لذلك كان علينا دائماً أن ندرك عملياً ، و بالقياس المنطقي ، أن قدرة الله الفائقة قادرة فعلاً على كل شيء لتحويل كل ما في الوجود إلى ما هو أفضل ، إنما على المدى الطويل .

ومن الواضح أشد الوضوح أنه لم يستطع حتى الآن أي عامل سلبي واحد ، منذ الخليقة وحتى اليوم ، أن يسود العالم أو ينمو في تأثيره الضار إلى مالانهاية بلا ضابط ؛ لذلك نحن نؤمن يقيناً أن وراء هذه القوى السلبية توجد قوة الله « ضابطة الكل» التي توجّه هذه السلبيات إلى خيرات وإلى حياة أفضل أكثر استقراراً وأكثر ازدهاراً .

ويمكننا أيضاً في ظل إيماننا الثابت بقدرة الله الفائقة على ضبط العالم الطبيعي أن نقول إنه بالنسبة للخير الحتمي الذي تؤول إليه كل أعمال الطبيعة وحركاتها لا يوجد ما نسميه أعمالاً سلبية محضة ، أو نعتبره خسارة كاملة ؛ بل هي تحولات لازمة لسير مجرى الحياة نحو الخير النهائي.

و يكفي تدليلاً على ذلك ، أن العالم منذ أن خلقه الله حتى اليوم دائم النمو والحركة إلى ما هو أفضل ، ولم يتقهقر قط . ربما تكون قد تراجعت عن الوجود أجناس برُمَّتها من الحيوانات أو النباتات وزالت لعدم تحمُّلها عنف التغييرات في الطبيعة ، ولكن قام عوضاً عنها أجناس أكثر قدرة على متابعة الحياة .

عقل الإنسان هو أحد الصور لقوى الله العاملة للخير في الكون :

و يلزمنا أيضاً أن نؤمن بأن قوة الله وقدرته الكلية ليستا صفتين جامدتين في شخص الله يدبر بهما حركات الكون من جهة ما وراء هذا الحجاب المادي الذي يكوّن عالم الإنسان .

فالإنسان أحد خلائق الله الممتازة ، وقد خصّه الله بعقل دقيق جداً له قدرة إلهية نفّاذة في التعرف على جوهر الأشياء وحقائق الحياة المادية . وهو بذلك يتقابل مع الله في حقيقة الأشياء المخلوقة ، فالخليقة مصنوعة بحكمة دقيقة غاية في الدقة ، ولكنها غير خافية تماماً على عقل الإنسان . فلأن الإنسان مخلوق إلهي ، وقد استودعه الله قسطاً وافراً من حكمته ، ولأن الله صنع الخليقة أيضاً بحكمته ؛ لذلك فإن الإنسان يستطيع كل يوم أن يكتشف هذه الحكمة ، ليس لأنه هو إله ، ولكنه يكتشفها بالحق الذي في جوهر عقله . فالحكمة يدركها الحكيم ، والحق يدركه الباحث عن الحق . ولكن لأن الإنسان هو مخلوق ؛ لذلك فهو لا يكتشف جوهر الحق الخالق ، وإنما يكتشف الأسلوب مجرد الأسلوب الحكيم العجيب الذي صُنعت به هذه المصنوعات والخلائق ، وذلك بصفته حاملاً لهذا الأسلوب عينه . فكلما اكتشف قانوناً في الحياة ، هيّأه هذا القانون لاكتشاف قانون آخر ، وهكذا يزداد الإنسان في معرفته للحكمة والحق عن طريق استيعاب أسلوب الحكمة والحق في الخليقة ، والموجود في صميم كيانه أيضاً .

وكما خلق الله الضوء والحرارة والحركة في المادة تحت قوانين غاية في الترتيب والدقة والحكمة ، كذلك خلق العقل في الإنسان . فكما تعمل الحرارة في الكون ، كذلك يعمل عقل الإنسان . ولأن عقل الإنسان اختُصّ بحكمة إلهية ومعرفة الحق ، لذلك فهو أقدر المخلوقات جميعاً على عملية إنماء الخير وإسعاد الخليقة .

فكما أن الله يضبط الزلازل والإنفجارات البركانية حتى لا تفسد الخليقة ، وذلك بقوته الحكيمة ، كذلك أعطى الإنسان أن يعمل بعقله الحكيم ليوقف الثورات المحلية

للطبيعة أو يتفاداها أو يحولها إلى ما هو أفضل ، وهكذا أعطاه أن يتسلط بعقله على الوحوش وعلى الميكروبات الفتّاكة وعلى الأمراض المختلفة .

وكلما نما عقل الإنسان وامتلأ من المعرفة بحقيقة وخواص الخليقة والقوانين التي تسير عليها ، ارتقى في قدرته الضابطة لها ، وتمكن من تحريك الخير الأسمى بنفس التوجيه والأسلوب الذي يعمل به الله في الخليقة العامة بصورة أعم . ولكن لا يتبادر إلى الذهن أن الإنسان يعمل بوجهة نظره الخاصة كمخلوقٍ سيِّدٍ حرٍّ في توجيه أعماله للخير الذي يبغيه أو للشر الذي يضمره ، كلا ، فعقل الإنسان يخضع كبقية المخلوقات تحت قوة الله القادرة على كل شيء الضابطة لكل نواحي تقدمه وتفكيره .

والإنسان ولو أنه يعمل الشر عمداً أحياناً و يرتكب أعمالاً مخرِّبة لجنسه تبدو أنها شرٌّ مُسْتَطِيرٌ و يبدو الخراب كائناً وراءها بشكل فظيع ، كاختراعه آلات الحروب الفتّاكة ، إلا أن هذا العمل أيضاً لا يمكن أن يفلت من ضبط يد الله الضابطة الكل ، فهو يوجِّهه في النهاية للخير كما يوجِّه زلزالاً مروعاً .

ولأن العقل البشري يميل — إن هو ابتعد عن الله — إلى ناحية اليسار نحو التخريب ، لذلك فهو ينطوي مجبراً تحت الخليقة العاجزة التي يعوزها دائماً حكمة الله وتوجيهه ، لذلك فإن هذا السبب الأخير أدعى لأن نؤمن ونعتمد ونثق بأهمية قدرة الله وحكمته على كل شيء ، وإلا يصبح عقل الإنسان — كما كان منذ البدء — سبباً في أن يفسد الحياة على نفسه ، ويخلق له في الجنة بؤرة عصيان .

ولكن و بالرغم من الحرية الظاهرية التي يبدو أن الإنسان يمتلكها لذاته في هذا الكون ، إلا أننا نستطيع أن نقول إن عقل الإنسان مضبوط بقوة الله الفائقة ، يعمل على المدى الواسع والبعيد خاضعاً داخل دائرة حكمة الله ومقاصده الأزلية ، وفي نفس الوقت يتحرك داخل دائرة ذاتية محدودة ، يعمل فيها كأنه حرّ ، وكأن له مشيئة خاصة يوجِّهها كيفما شاء ، سلباً أو إيجاباً . ومثله مثل الأرض التي تدور حول نفسها في مدارها الخاص ،

وفي نفس الوقت تدور خاضعة لمدار الشمس ، وهي في الحقيقة ليست حرة في حركتها التي تظهر كأنها خاصة ، أي حركتها اليومية ، لأن منبع حركتها الخاصة هو أيضاً مستمد من قوة جذب الشمس وأثرها المباشر عليها .

كيف يرضى الله ــ بالرغم من قدرته الفائقة ــ أن يُهانَ اسمه و يُنْكَر وجوده :

وأحياناً يتيه عقل الإنسان عجباً بقدراته الخاصة في فهم الأمور وضبط الأشياء البسيطة التي تقع تحت إمكانياته المتواضعة ، فينكر الحكمة الفائقة التي تدبر الخليقة كلها ، و ينكر الله الكلي القدرة ، ويجدّف على اسمه العظيم جهاراً ، فيحتار الناس : كيف يرضى الله أن يُهان اسمه و يُنكَرَ وجوده ، مع أنه قادر أن يظهر قدرته الفائقة بأن يعاقب الملحد أو يلغي إدعاء المجدّف بمعجزة مثلاً ؛ ولكن فات على الناس أن أي إجراء سلبي يتخذه الله تجاه الذين ينكرون وجوده ويجدّفون عليه ، يكون في الواقع انتقاصاً من صفته العظيمة ، أي قدرته على كل شيء . فالله لو عاقب الإنسان عقاباً انتقامياً إزاء جحوده ، كان ذلك معناه أن الله يدافع عن قدرته الإلهية ، وكأنما قدرته الإلهية سيصيبها شرٌّ أو ضرٌّ ، وهذا محال ، لأن قوة الله لا يمكن أن يُنتقص منها بأي عامل مهما كان ، ولهذا تدعى « **قدرة كلية** » .

كذلك فإن الله لا يلغي إدعاء المجدفين عليه ، بأن يثبت وجوده بمعجزة مثلاً كما ينتظر الناس ، فهذا يكون أيضاً نوعاً من الدفاع عن الذات ، وحاشا لله ! فقدرة الله ثابتة من الأزل وإلى الأبد ، وتجديف الناس عليها والإفتراء عليها إنما ، وبمرور الزمن ، يزيدها يقيناً وثباتاً ، وهل يلغي جحود الإنسان وجود الله ؟

ولكن لقدرة الله الكلية عملاً آخر تعمله ، يتضح منه أنها فائقة فعلاً وكلية ، بكل معنى ، وذلك بتحويل الشر الذي يحدثه الملحدون بإلحادهم وكفرهم إلى نهايات خيِّرة ، فبقدر ما يتبارى الملحدون في تقديم أدلة على انعدام وجود الله عملاً وفكراً ، بقدر ما

تُستنفر كل قوى الخير والإيمان في المؤمنين ، لتعمل أكثر وتشهد أوفر ، فيزداد تعمق الإنسان في إدراك الله على طول المدى .

وهكذا كلما خرج من صف البشرية الزاحفة نحو الله أعداد ملحدة ، ازداد وعي الإنسان بالله عمقاً واتصالاً ، و بالنهاية يزداد وجود الله في عالم الإنسان قوة و يقيناً .

فالإنسان خُلق ليكون بالنهاية خليقة خيِّرة في ذاتها ، ليشهد لخيرية الله ، وقد خُلقت إمكانياته لمقاصد خيِّرة تجاه الكون الذي يعمل فيه . علماً بأن الله لا يعاقب الإنسان لمجرد العقاب ، فالعقاب لا يتناسب مع صفة الله الكلي القدرة ، ولا يتناسب مع قصده من خلقة الإنسان . فقدرة الله الكلية تنشط فقط ضد الإتجاهات السلبية التي تنشأ في الكون سواء كانت عامة أو فردية ، سواء من خليقة جامدة أو خليقة عاقلة ، فتمتص الشر الذي فيها لتوجِّهه إلى الخير وتحوله مع الزمن إلى ما هو أفضل . وقد سبق أن قلنا إن الثورات السلبية الطبيعية من زلازل وفيضانات يمكن أن نعتبرها نوعاً من النشاط الخيِّر ، لو اتسعت نظرتنا لتشمل النتائج المترتبة عليها .

وكذلك يمكننا أن ننظر إلى حالات الثورات الفكرية ضد الحق والله في الإنسان سواء كان فرداً يعبِّر عن سخطه ضد الله أو فئة تعبِّر عن فلسفتها لإنكار وجوده ، كأنها نوع من النشاط العقلي السلبي ، فلا يحمدها الله كعاجز بل يقودها في هدوء قدرته الفائقة كما يقود زلزالاً مخرِّباً ليخرج منها ثمرات إيمانية غاية في الثبات والخصوبة ، وإنما على المدى الطويل .

فاضطهاد دقلديانوس المروع للمسيحية في العالم ، أو حركة الإلحاد العلمي التي قامت ضد الدين في القرن الثامن عشر ، لم يحرك الله ليميت هذا الطاغية أو ليهلك علماء قرن من الزمان ؛ بل كان الله موافقاً على أعمال هذا ومهاترة أولئك ، إذ كان يهيىء للذين استشهدوا أكاليل مجد لا تفنى و يتمهل على العالم الوثني حتى يستنفذ كل قواه ، وفي نفس الوقت وفي هذه الظروف المعاكسة نشطت حركات إيمانية قوية في العالم

المسيحي ارتوى منها العالم ، ولا يزال يرتوي ، كأنما دقلديانوس وغيره من الطغاة الذين زخرت بهم الأجيال عبارة عن فيضانات مخرِّبة خلّفت وراءها تربة خصبة أشبعت العالم كل الأجيال .

وهكذا ، وحتى لو أفسد الإنسان طريقه فعقابه يتحول إن آجلاً أو عاجلاً إلى خير وارتقاء للبشرية من حوله ، والله دائماً هو الغالب لخير الإنسان .

وقد توجد حالات فردية حصل للإنسان فيها نوع من العقاب بسبب التجديف على الله أو إنكار عمله أو الكذب عليه ، كهيرودس الذي لم يعطِ المجد لله أو حنانيا وسفيرة أو سيمون الساحر... إلخ ، هذه جميعها لا نرى العقاب فيها نوعاً من الإنتقام ، حاشا لله ، فالله غير منتقم بالشرور، بل هو قضاء شكلي مؤقت يعطي صورة لحقيقة القضاء النهائي في إلغاء ما هو سلبي لحساب ما هو إيجابي .

قدرة الله الفائقة وأعماق حكمته اللانهائية ، لا يمكن الإلمام بها بالعقل :

حقاً إن عقل الإنسان أداة صالحة لمعرفة قدرة الله الفائقة وحكمته اللانهائية في الكون ، ولكن لا يمكن أن يصلح للإحاطة بها ، لأن العقل « **جزء** » من عمل قدرة الله وحكمته ، وليس « كُلاً » ، ولذلك فإن دائرة معرفته تنحصر في دائرة ما يدركه فقط ولن تتعدى يوماً ما يفوق إدراكه ، وواضح أنه توجد أشياء حتى في العالم المادي تفوق إدراك الإنسان ، كمنشأ الحياة مثلاً ، أو ماذا تؤول إليه الحياة بعد الموت ؟

وحتى ما هو في دائرة إدراك العقل البشري لن يستطيع الإنسان أن يدرك منه إلا ظواهره وسلوكه ، أما ناموس العِلّة فهو أصعب من أن يفحصه العقل . فالإنسان يعرف كيف يحيا النبات وكيف ينمو، ولكن لماذا يحيا النبات ؟؟ ولماذا ينمو؟ هذا وكأنما له إرادة قوية ملحّة تدفعه من التربة وترفعه عالياً ضد قوى الجاذبية الأرضية الشديدة .

كذلك نحن نعرف كيف نفكر ونسلك ونتكلم ونعمل ونحيا ، ولكن **لماذا نحيا ؟** هذه

هي معضلة الفلاسفة التي لم يقو عقل بشري على الإفصاح عنها . وهكذا مهما تعمق الفكر البشري في الخليقة لفحص دقائق الكون والخلائق فهو لن يكتشف إلا النواميس التي تحيا بمقتضاها إن كانت حية أو خواصها الطبيعية إذا كانت جامدة .

فالعلم يستطيع أن يتوصل إلى تحليل كل شيء ومعرفة ما فيه من قوة كامنة ، وهو يحلل أدق ذرّة في الوجود و يكتشف خواصها و يستخدم قدرتها الكامنة فيها ، سواء للخير أو للشر ، ولكن لن يعرف لماذا خُلقت الذرّة ؟ ونحن لا نستطيع أن نقلل من قيمة ناموس العلة بالنسبة لناموس السلوك ، فمهما اكتشفنا من القوانين التي يسير عليها العالم ، ومهما استخدمنا من خواص المواد التي نفحصها ونحللها ، ومهما عرفنا من صفات وطبائع الخلائق الحية ، ثم أخفقنا في معرفة لماذا خُلق العالم وما فيه ، ولماذا خُلقنا نحن ، فإن كل معرفتنا الأخرى تبقى ناقصة ، بل وتصير فاقدة لأهم عنصر في مفهوم الإدراك وهو: علة وجودها . مما يشكل سبباً من أسباب تعطيل سعادة الإنسان في حياة هذا الدهر . ولن يستطيع العقل أبداً بالرغم مما فيه من معرفة وحكمة أن يدرك من فحصه الخاص للأمور المادية ناموس العلة أو بالحري مقاصد الله في الخليقة .

إذن ، فلا ننتظر أن توصلنا معرفتنا بالأمور إلى معرفتنا لقدرة الله وحكمته ، ولكن العكس صحيح ، فإيماننا بقدرة الله الكلية وحكمته تهيىء لنا بالتأمل في الخليقة اكتشاف الحق الذي تقوم عليها أعمال يديه ، فيزداد الإيمان بقدرة الله و يزداد اليقين بكل وعوده .

فبالرغم من أن مشيئة الله في جوهرها المطلق غير مفحوصة كما يقول الكتاب :

+ « يا لعمق غنى الله وحكمته وعلمه . **ما أبعد أحكامه عن الفحص وطرقه عن الإستقصاء . لأن مَنْ عرف فكر الرب .** » (رو١١ : ٣٣ و٣٤)

+ « **الحكمة المكتومة ... لم يعلمها أحد من عظماء هذا الدهر .** » (١كو٢ : ٧ و٨)

+ « لأنه **مَنْ عرف فكر الرب** فيعلّمه . » (١كو٢ : ١٦)

وذلك من جهة إمكانيات الإنسان الشخصية ، إلا أن جميع أعمال الله ومشيئته مفحوصة بواسطة روح الله و بالإيمان به :

+ « الحكمة المكتومة ... الروح يفحص كل شيء حتى أعماق الله ... أمور الله لا يعرفها أحد إلا روح الله ... **فأعلنه الله لنا نحن بروحه .** » (١كو٢ : ٧ و١٠ و١١ و١٠)

+ « **إذ عرّفنا بسر مشيئته حسب مسرته** التي قصدها في نفسه . » (أف ١ : ٩)

+ « إن لم تؤمنوا فلن تفهموا . » (إش٧ : ٩ الترجمة السبعينية)

+ « من أجل ذلك ... لم نزل مُصلّين وطالبين لأجلكم أن تمتلئوا من معرفة مشيئته في كل حكمة وفهم روحي . » (كو١ : ٩)

+ « لأن الأرض تمتلىء من معرفة مجد الرب كما تغطي المياه البحر . » (حبقوق ٢ : ١٤)

□□□

وهكذا نرى أنه لا يصح الإعتماد على الفحص العقلي لتقرير كنه الإيمان بقدرة الله الفائقة وحكمته ، وكذلك فإن هذا العجز الذي يصطدم به العقل في فهمه لناموس علة الموجودات هو سبب كافٍ ليكون الإيمان أساس التفكير لبلوغ إدراك الله وليس الفحص العقلي وذلك أمر حتمي حتى يكفل للإنسان سعادته بالله وامتداده في معرفة الحق وأسرار الحياة والإحساس بالوجود وعلته .

— ٢ —

رؤيا متفائلة لموازين الله(*)

□●□●□

ـ ما هي رؤيا الإنسان المسيحي تجاه موازين الله التي يسوس بها العالم؟
ـ هل الألم والمرض والموت والحروب والزلازل والنكبات الطبيعية الأخرى تتعارض مع رحمة الله؟
ـ هل يصح أن ننظر إلى أعمال الله على أنها علامات غضب أو انتقام من الإنسان؟
ـ ما صلة رحمة الله بالإنسان الذي يُستهدف للألم والموت؟ و بالأشخاص الذين حُرموا من رعاية عائلهم حين يموت؟
ـ ما السبيل إلى الإنفكاك من الواقع المؤلم؟
ـ «التذمر من الحرمان»، و «الرغبة في المزيد» وأثرها على تمزُّق الإنسان.
ـ رؤيا الخلود من وراء الألم!

□□□

تعديل لمفهوم الرحمة:

كثيراً ما نخلط بين الرحمة في نظر الناس ورحمة الله، ذلك لأن أعمال الله مع الإنسان تتراءى لنا كأنها صفاته مع أنها الأسلوب الذي يتفق مع طبيعتنا المتغيرة المستهدفة للنكوص والتقدم.

والرحمة التي يعرفها الناس عن الله، أصبح لها في أذهانهم مقياسٌ أساسه شعورهم بالرحمة كما يقيسها الإنسان من نحو الآخر، مع أن هذا المقياس البشري من الضعف والمحدودية بدرجة لا يصح ولا يليق أن نحصر به رحمة الله الخاصة به.

(*) نص خطاب أرسل لأحد الإخوة عام ١٩٥٨ ردًّا على سؤال.

ولكن لا مفر من استخدام هذا القياس مبدئياً لإدراك الرحمة عموماً . فهو الوسيلة الحسية الوحيدة التي يمكن أن يتذوقها عامة الناس . ولكن يلزم لمَن يريد أن يتفهم أحكام الله الخاصة من جهة الرحمة أن يسمو من الإدراك الحسي للإدراك العقلي ، حتى ندرك الرحمة الإلهية الفائقة غير المحدودة !

ونحن لا نستطيع أن نقتحم اللانهائية بفكرنا المحدود لنتفهم أمورها التي لا تحد كما نقيس أبعاد الأجسام المادية ، بل كل ما يستطيع أن يسعفنا به العقل هو أن يصل بنا عن طريق الإحساسات والقياسات المادية إلى حافة عالم المادة و يتركنا نواجه اللانهائية لنتحسس الحقيقة من خلف الواقع بوجداننا الروحي .

نحن نرى أن رحمة الإنسان تتعارض مع قتل الإنسان ، وبهذا يتكون في ذهننا صورة محدودة للرحمة . ولكن نحن نعلم أيضاً أن المجتمع يوقع حكم القتل على الإنسان المجرم ، ولا أحد يحتج بأن ذلك يتنافى مع إحساسات الرحمة ، وبهذا تتفكك الحدود التي وضعناها سابقاً للرحمة ، وتمتد الرحمة عن طريق آخر غير الإحساس المادي تتحكم فيها قياسات منطقية عقلية .

فإذا كان الإنسان يمكن أن يجيز القتل ولا يتعارض ذلك مع الرحمة ، فأي اتساع يمكن أن نتصوره عن الرحمة في معاملات الله لنا التي تفوق قياسات العقل والمنطق ؟

كذلك نحن لا نجهل أن من صميم عمل الرحمة عند الإنسان أن لا يدع حيواناً جريحاً أو مريضاً يتألم ألماً مبرِّحاً معروف أنه سيؤدي به إلى موت بل يعجِّل بموته رحمة به . فإن كانت رحمة الإنسان تجيز قتل الحيوان ولا يتعارض ذلك مع مشاعره الرقيقة إذ يسمو الحس العقلي والمنطقي على الإحساس الجسدي الشعوري ، فكيف نغلق تفكيرنا عن رحمة الله معنا ومع الخليقة في دائرة الإحساسات الجسدية المحدودة ؟

فإذا كانت الرحمة حسب القياس البشري يمكن أن تتسع لتشمل أعمالاً ليست في

الأصل من اختصاصها ، بل أحياناً ضدها وعكسها ، فجدير بنا إذا تحدثنا عن رحمة الله أو تفكّرنا في غاياتها أن لا نقف عند حدود تعارضها مع إحساساتنا الجسدية ولا العقلية ، كأن رحمة الله أخطأت هدفها أو جنحت عن سبيل المنطق السري فنجزع !

ولا يليق بنا أن نتغاضى عن الأمر الحادث في عدم مبالاة ، لأن ذلك حريٌّ أن يبلغ بصاحبه إلى موات الشعور والعاطفة . بل ولا يليق أيضاً أن نُخضع مثل هذا التعارض للقَدَر أو نؤوّله إلى رحمة الله تعسفاً دون أن نتفهم لياقته لوجداننا ، لأن ذلك حري أيضاً أن يبلغ بصاحبه إلى تكوين فكرة مبهمة عن الله قابلة للتشويش والخلط . إنما اللائق حقاً أن نرهف الإحساس الوجداني من كل نواحيه حتى يتفهم الإنسان و يتذوق رحمة الله في كل ما يحدث حوله مهما كانت صور تعارضه مع الإحساسات الجسدية أو منطق البشر .

ومن الأمور الشائعة لدى التفكير البشري أن يؤخذ الألم والمرض والموت والحروب والزلازل والنكبات الطبيعية الأخرى مأخذاً يتعارض مع رحمة الله أو على الأقل لا يتمشى معها فتختفي صورة الرحمة الإلهية من ذهن الإنسان و ينظر إلى أعمال الله كأنها علامات غضب أو انتقام منه ، مع أننا لو تفهمنا الأمر بروحنا ووجداننا ، ما وجدنا أي تعارض مع الرحمة في أي حادث يحدث تحت الشمس .

فلو تأملنا في الموت الذي هو تحصيل الألم النهائي بكل صوره العديدة والمتعددة التي لا تدخل تحت حصر ، سواء بأمراض فجائية أو مستعصية أو حوادث أو حروب أو زلازل أو مجاعات ، نرى أن الأثر المباشر الذي يحدثه الموت يقع على شقين :

الشق الأول : الإنسان الذي يُستهدف للألم والموت ،

والشق الثاني : الأشخاص الذين حُرموا من رعاية الميت .

فالإنسان الذي يُستهدف للموت لا يعتبر الموت بالنسبة له حادثاً غريباً ، فهو لابد أن يجوز الموت في حياته ، وها هي ساعته قد جاءت ، فلا عجب ولا دهشة في ذلك ، بل إن حياته الماضية كلها لا تحمل من الجد والحق بقدر ما تحمله هذه الساعة . ومهما كانت

صورة ذلك الموت شديدة وعنيفة ، ومهما كانت نوازع الألم التي تلازمها ، فكلها في اعتبار المائت نفسه لا قيمة لها . ولكن شدتها و بشاعتها تظل عالقة في أذهان الذين عادوه وهو على فراش الموت .

من هنا أصبح الموت في نظر الأحياء حالة مرعبة مفزعة ، مع أنها لا تز يد في حقيقتها عن مثل حالة مر يض متألم يقف ألمه فجأة بعامل مخدر . فإن كان المرض لا يرعبنا ، فأجدر بذلك الموت ذاته . فنحن لو تبسطنا في اعتبارات الموت بالنسبة للمائت لوجدنا أن الموت يدخل في دائرة الرحمة خصوصاً إذا كان يسبقه ألم .

أما الأشخاص الذي حُرموا من رعاية عائلهم بموته ، فهنا تنبري لهم رحمة الله واضحة سافرة ، فينصِّبُ الله نفسه أباً لهم بكل معنى الأبوة من حنان وحَدَب ورعاية ، و يز يد الله على الأبوة عبئاً آخر يحمله لنفسه ، وهو أنه يكون قاضياً لهم « أبو اليتامى وقاضي الأرامل » (مز٦٨ : ٥) ، « اترك أيتامك أنا أُحييهم وأراملك عليَّ ليتوكَّلن » (إر٤٩ : ١١) . و يا لها من كلمة تحمل معاني وأسراراً عميقة ، بل واختبارات وحقائق ملموسة . فإن كان يقع على مثل هؤلاء نوعٌ من الجهد الزائد للقيام بأعواز المعيشة ، فذلك سيكون حتماً تحت عناية الله الخاصة ورعايته المباشرة .

وهكذا يتضح أن نصيب هؤلاء الأشخاص من الرحمة قد ازداد بموت عائلهم !!

فإن كان الموت يظهر كحادثة أليمة مجرَّدة تحمل في ظاهرها معنى خاطئاً من معاني الترك والإهمال من جانب الله ، فذلك بسبب قصورنا في فحص قضيتها ، إذ أن جوهرها يحمل حقيقة عكسية تماماً وهي تحمُّل الله لمسئولية ذلك البيت نفسه . وخلاصة القول أن الله الذي يميت ويحيي قد ضمن لنا بشخصه أنه لن يتخلى عن رحمته قط لإنسان يسعى في إثرها ، وقد تكفَّل بنفسه حفظ حقوقنا في الأعواز الجسدية والروحية ، حتى ولو فقدنا عائلنا الوحيد .

وكم من نوابغ العالم فقدوا عائلهم وهم في الطفولة ، فكان هذا الحرمان حافزاً لتنشيط ملكات الفهم والإحساس عندهم ، فنبغوا في كل علم وفن . وما هذا إلا نوع من التعويض الإلهي ، و يظهر كأنه قرينة طبيعية ، مع أنه في حقيقته عمل إلهي متناسق . وحتى إذا لم يوفَّق اليتيم إلى بلوغ درجة التوسط في الحياة كنتيجة مباشرة لفقد أبيه فلا يمكن أن نسوق اللوم جزافاً على جانب الله . لأن الله قد سبق وأودع البشرية عواطف الحنان والحَدَب على المعوزين مع وصية خاصة باليتيم والأرملة . وهذا يعتبر رصيداً هائلاً مذخراً في جانب هؤلاء المساكين .

وهكذا إن كان الموت يحمل ، في ناحية ، صورةً من الحرمان واقعة على الذين فقدوا عائلهم ، فهو يحمل صورة خيِّرة من ناحية أخرى هي تنشيط غرائز العطف والمحبة في البشرية لممارسة الرحمة المنسكبة في قلوبهم بروح الله من نحو المحتاجين لتكميل جسد البشرية .

إذن ، فالله لا يكفُّ عن توفير الرحمة وإعلان حنان أُبوته بشتى الطرائق حسب منطق الخليقة وترتيب نواميسها الحكيمة النافعة واللائقة والمستعدة لكل خير . والذي تنفتح بصيرته يدرك مقدار الغنى الذي أجزله الله في الطبيعة البشرية بحيث أن قيام نقص فردي أو أي طارىء سلبي يقابله احتياطات هائلة مذخرة في الطبيعة البشرية وفي الخليقة بوجه عام لتعويضه ، والذي يلزمنا هو التعرف على مواهبنا أولاً ثم تنشيطها وتنسيقها واستخدامها لصالح أعواز الإنسان سواء كانت فردية أو جماعية أو دولية أو عالمية .

تعديل لمفهوم الآلام التعسفية :

إن إحساسنا بالألم هو جزء هام من ملكة الإحساسات البشرية المتسعة التي يحيا بها الإنسان في هذا الكون العجيب الهائل .

وليس هناك ما يفصل الإحساسات الجسدية عن الإحساسات النفسية ، بل هما مزيج مؤتلف ائتلافاً يؤهّلنا للإشتراك اشتراكاً فعلياً في هذا الوجود حولنا الذي هو مزيج

أيضاً من مادة وروح ! فأجسادنا تدب على الأرض كجزء منها تشترك معها في كل ما لها وما عليها ، تخضع لكل قوانين العالم الكوني و يسري عليها كل ما يسري على المادة من قوانين الجاذبية والحركة والحرارة والضغط والتغير ، لأن أجسادنا هي في الواقع حفنة من تراب الأرض تنتقل عليها بقوة النفس الحية المتحدة بها .

وأجسادنا تحس بعالم المادة وقوانينها لا إحساس الإدراك العقلي فقط ولكن بانسجام تحتّمه طبيعة المادة الواحدة فهي منها !

أما أرواحنا فهي أيضاً تكوّن جزءاً هاماً من الوجود الروحي الحي تحس به إحساساً غامضاً ولكنه قوي ، وذلك عن طريق إحساسها بذاتها ، لأن شعورها بكيانها ووجودها هو اشتراك فعلي في الوجود العام .

وطالما نحن أحياء في الجسد فلن نستطيع أن نفصل بين مشاعر الجسد ومشاعر النفس من حيث الإحساس بالوجود العام . لأن ألفة الحياة البشرية بين الجسد والروح توطّدت حتى يستطيع الإنسان أن ينسجم في هذا العالم الكوني الروحي دون أن تنقسم جبلته على ذاتها . وائتلاف هذه الإحساسات الجسدية والروحية معاً في جبلة الإنسان جعلته مخلوقاً متميزاً عن باقي المخلوقات ، فلا هو حيوان محض بليد الإحساس فاقد الوجدان محدود المشاعر في إطار جسد حي وحسب ، ولا هو روح محض مترفع الأحاسيس منطلق المشاعر في قوى الروح بلا حدود . ولكنه ائتلاف عجيب بين إحساس حيواني بليد وإحساس روحي مترفع ، فهو يمتلك أطراف المشاعر من أدناها في الجسد إلى أعلاها في الروح . هذا الإئتلاف الفريد من نوعه جعل الإنسان يمتاز بأحاسيس راقية ولكنها تزداد رقة كلما سما الإنسان بروحه ، وهي بمجموعها عميقة تمتد حتى أصول الغرائز الحيوانية وسامية تلم بما وراء الطبيعة ، شيء لا مثيل له في أي خليقة أخرى !

ولم يكن ائتلاف مشاعر الروح بمشاعر الجسد مسألة جزافية ، ولكن واضحٌ الهدفُ الذي يكمن وراء ذلك . فالإنسان مُطالَب بأن يسمو بغرائزه وأحاسيسه الجسدية الطبيعية

إلى المستوى الروحي الذي يمكّنه من أن يحفظ درجة خلقته البشرية فوق مستوى الحيوان !! فلا هو مطالَبٌ أن يسمو فوق أحاسيس الجسد إطلاقاً ليكون في درجة الملائكة ، ولا هو مسموح له أن ينحط إلى مستوى أحاسيس الحيوان ضارباً الصفح عن إمكانياته الروحية .

والنتيجة المباشرة لهذه الألفة العجيبة بين إحساسات الجسد والروح أن صار للإنسان القدرة ــ من ناحيةٍ ــ على توجيه الأحاسيس الجسدية إلى مستويات روحية ممتازة ، وهذا ما نسميه بالتسامي ، ومن الناحية الأخرى ، قدرته على إخضاع الإلهامات الروحية وإخراجها إلى حيِّز الوجود الظاهري الجسدي ، وهذا ما نسميه بالبر والفضيلة والسلوك الراقي . من أجل هذا وهب الله القدير الإنسان مراكز عصبية دقيقة ومراكز المخ العليا التي بلغت من الرقي والحساسية والإختصاص مبلغاً لم نعهده في جهاز آخر سواء في الإنسان نفسه أو في خليقة أخرى ، حتى يستطيع أن يسمو بالمشاعر الجسدية إلى أقصى غاية ممكنة لتتماس مع الإحساسات النفسية ذات المراكز العليا المجهولة . وفي نفس الوقت يظل قادراً على التقاط أحاسيس النفس العليا وإلهامات الروح ، ثم إخضاعها للحس العقلي بصياغتها في كلام مسموع أو عمل فني أو روحي .

وهكذا نرى أن الحساسية الممتازة في مراكز الشعور والإحساس في الإنسان تخدم قضية الإنسان الروحية ، بل إنها وُجدت لتهيىء للإنسان فرص السمو الروحي ، لأنه لو كان الإنسان مخلوقاً حيوانياً فقط لما أعوزه هذا الإرهاف الشديد في مشاعره ، وخصوصاً في تميُّزه بآلاف الأنواع من الآلام ، ومنها آلام لا تخدم قضية الحياة الجسدية (الحيوانية) بل على العكس تقلل من إسعادها والأخذ بمسراتها ، وأحياناً تسيء إليها إساءة شديدة ، وربما تقضي عليها كالآلام النفسية المعقدة .

إذن ، فلو حاولنا تفهُّم الآلام الكثيرة التي تصيب الإنسان من وجهة النظر التعايشية أي في حدود ما تقتضيه الحياة الجسدية للإنسان وحسب ، فنحن لن نجد تأويلاً حقاً لكثير من الآلام ، بل ولن نوفَّق إلى قانون ينظم صلة الإنسان بها .

أما إذا أعدنا النظر وأدخلنا في اعتبارنا أهمية دور الآلام من الناحية الروحية في الإنسان ، فحينئذ نجد تأويلاً حقاً لجميع الآلام ؛ بل وإذا أجهدنا أنفسنا بالقدر اللائق لأهمية هذا الموضوع ، لاستطعنا أن نُوَفِّق إلى قانونٍ ما ينظم صلة الإنسان بالآلام ؛ على هدى قول الرسول : « إنه بضيقات كثيرة ينبغي أن ندخل ملكوت الله » (أع ١٤ : ٢٢) أو تفهماً لقول الرسول يعقوب : « احسبوه كل فرح يا إخوتي حينما تقعون في تجارب متنوعة » (يع ١ : ٢) . أو قول بولس الرسول : « لأني حينما أنا ضعيف فحينئذ أنا قوي » (٢ كو ١٢ : ١٠) ، « صابرين في الضيق » (رو ١٢ : ١٢) أو قول بطرس الرسول :

ـ « إن عُيِّرتم باسم المسيح فطوبى لكم لأن روح المجدِ والله يحلُّ عليكم . » (١ بط ٤ : ١٤)

ـ « إن كنتم تتألمون عاملين الخير فتصبرون (فهذه نعمة من عند الله) . » (١ بط ٢ : ٢٠)

ولكن ليس الجميع استخدموا أحاسيسهم المرهفة ومراكزهم العصبية الممتازة للهدف السامي الذي خُلقت له ، أي لحياة بشرية متسامية فاضلة ذات غايات إنسانية وروحية عالية . إذ يوجد كثيرون اكتفوا بأحاسيسهم ووجدانهم وقوى العقل ومراكزه الحساسة للتفاعل مع حقائق الجسد والعالم والماديات وحسب .

لذلك نجد أن الأولين كانوا قادرين دائماً على امتصاص صدمات الحياة المؤلمة والإنتفاع بها ، وقد مهروا في تحويل الآلام العارضة إلى اختبارات نفسية وروحية نافعة ، وكأن الآلام صارت صديقاً نَصُوحاً لهم ، أو كأن الآلام أصبحت لهم لغة الواقع التي يمكن تحويلها إلى معانٍ روحية سامية ومفيدة ، وهذا في الحقيقة يُحسب أنه المستوى اللائق للتركيب الوجداني للإنسان ، بينما الآخرون نجدهم فاشلين في استخدام صدمات الحياة متذمرين على آلامهم العارضة ، بل وعلى آلام غيرهم أيضاً ، وكأنما الآلام صارت عدواً عنيداً لهم تزيدهم تشاؤماً ، وتهبط بكل مستوياتهم العليا لتعمل على أقل درجة من التفاعل مع الحياة اليومية حتى لتكاد تماثل الحيوان في انحصاره في دائرة النشاط الجسدي

وحسب .

الإنفكاك من الواقع المؤلم :

و« الواقع » المقصود هنا هو الواقع المادي المحسوس الضيق أو التشاؤم العقلي المعاش ، حينما يقف في وجه الإنسان كطريق مسدود : مرض عضال ، إخفاق ، ظلم ، إضطهاد ، إلى آخره من المسلسل المأسوي الذي تنثره الحياة بلا حساب في وجه الساعين إلى قمم الطموحات ، الأمر الذي إذا تشابك معه الإنسان لحظة ، انغمر في دوامة الهموم والأحقاد ، وانحجبت عنه بهجة الحياة برحبها اللانهائي ، وفقد كل ما تحويه هذه الحياة الرحبة من رجاء لا يحدّ ، رجاء يعلو و يتشامخ فوق كل واقع مادي مأسوي ، بل وفوق كل قياس عقلي متشائم ، الأمر الذي يُعتبر بحد ذاته أبدع وأروع ما يمكن أن يرتشفه الإنسان من رحيق الوجود .

لقد أمد الله الإنسان بطاقة الخلود في صميم خلقته الأولى ، ليظل متفوقاً على الموت حتى ولو انهزم الجسد بضرباته ، بل وسيظل الإنسان يستشف أمجاد الخلود هذه ، حتى ومن خلف مذلاّت القهر ، فترتسم على وجهه في النهاية ابتسامة الغلبة على هذا العالم ، من خلف دموع الواقع المفجع .

فالإنسان إذا وعى عظمة خلوده والتحم بعناصر روحه الخفّاقة الآتية من نسمات الله ، فسيدرك أنه مجهّز سرًّا بجناحيّ الروح ليطير فوق وادي الموت بكل أنينه وأوهامه لا يخاف منها شراً كعصفور خُلق ليتسنّم قمم النور ، لا أن يستوطن وحل الواقع المخادع . فالإنسان أعظم من الزمان ، و بالتالي هو أعظم من كل ما ينسجه الزمان من حادثات مصيرها الحقيقي إلى نسيان ثم إلى زوال .

لذلك كان أخطر ما يواجه الإنسان في هذه الدنيا أن يفقد رؤ يا الخلود ، فيختل توازنه على طريق الحياة ، فيسقط في دوامة الواقع المادي الضيق ، الذي هو من صنع هذا الزمان ، فيبدأ يتحسس نفسه على قياس الحظوظ ما أتاه وما فلت من يديه ، و يقيس ما

صار إليه على ما صار إليه الناس ، فتنطوي نفسه تحت مرارة قياس عقله وتنحصر روحه وكل مَلَكاته ولا تعود تساوي في تقديره مسرة أو كرامة من كرامات الآخرين المصنوعة أصلاً من تراب الأرض وإليها تعود ، فيصغر الإنسان في نفسه حتى العدم .

وليس المحرومون من حظوظ المسرَّات والكرامات هم وحدهم الذين يسقطون في فخ الواقع المؤلم المتذمر المحدود بالزمان والمكان ، بل وهؤلاء أيضاً الذين يسعون بلا حذر وراء الرغبة وأشواق المسرَّات الخارجية وكرامات وأمجاد هذا الدهر ، يلهبهم الطموح إلى المزيد ثم المزيد دون أن يبلغوا قط حد الإرتواء ، ولن يبلغوا ، فكل هدف يبلغونه يدفعهم لينطرحوا تحت أقدام هدف آخر دون شبع . هؤلاء عبيد « الرغبة في المزيد » ، فهي فخُّهم الضيق الذي يربطهم قسراً وبلا رحمة في الزمان والمكان ، فيجعل من دقائق الساعة ومن مكاتبهم الفخمة سجنهم الضيق الكئيب .

والأمر الغريب أن يتساوى الذي يعتبر نفسه محروماً من مقومات المسرات والسعادة الزمنية مع الآخذين منها بالرغبة المتزايدة دون شبع أو ارتواء ، إذ يسقط كلاهما في دائرة الواقع المادي المربوط بالزمان والمكان إلى حد العبودية وفقدان الكيان . هذا ينجذب إلى الفخ من واقع الإحساس الجارف بالحرمان على مقياس الظلم ، وذاك ينجذب إلى نفس الفخ من واقع جنون « الرغبة في المزيد » دون ارتواء ، وهكذا يستطيع العالم بالخداع المادي أن يغوي الإنسان ، نفس الإنسان ، إلى السقوط تحت عبودية الدائرة المغلقة للزمان والمكان ، ويسلبه حرية وجوده وامتداد كيانه فوق الزمان والمكان بالحرمان المتزايد وبالعطاء المتزايد من السعادة الوهمية على حد سواء !!

وكيف إذن يكون الفكاك ؟

إن الأبدية السعيدة واللانهائية ، غير المنحصرة قط ، والخلود برحابته ورجائه الذي لا ينتهي أبداً ولا يتوقف أبداً ، هو **داخل الإنسان وليس خارجه** « ها ملكوت الله داخلكم » (لو١٧ : ٢١) . إن خدعة العالم العظمى أن يُغوى الإنسان لينظر إلى السعادة

خارجاً عن ذاته ، و يطلب الله بعيداً عن قلبه .

لذلك ، فباختصار شديد نقول ، إن السقوط في الشعور بمرارة الحرمان من مقومات السعادة الوهمية والكرامة المتأتية من المظاهر الخارجية ، هو في الحقيقة انعكاس صادق أو رد فعل غاية في الوضوح يعبِّر عن فداحة الخطأ والخسارة التي وقع فيها الإنسان عندما أعطى ظهره إلى مقومات السعادة الداخلية بعمقها الأبدي ورجائها وغناها الذي لا يُحدُّ داخل الإنسان ، **أي أن السقوط في مرارة الشعور بالحرمان** هو في الحقيقة عقاب مباشر ، يظل يلاحق الإنسان دون أن يدري ، ليس بسبب حرمان زائف بل بسبب فقدانه للرؤية الحقيقية للسعادة الحقيقية ، ومما يزيد هذه المعادلة وضوحاً هو أن مقدار الشعور الطاغي والصادق بمرارة الإحساس بالحرمان الذي يلاحق الإنسان بلا هوادة ، والذي ينكد عليه حياته و يفقده اتزانه وكيانه ، لا يساوي أبداً أبداً فقداناً وهمياً لتلك السعادة الوهمية الزائلة أو الكرامة الظاهرية الزائفة ، أي أن الشعور الطاغي بمرارة الحرمان هنا هو إحساس نابع من فقدان حقيقة وحرمان من سعادة صادقة وليست وهمية ، التي هي سعادة الإنسان الداخلية الدائمة وغير الزائلة برجائها وفرحها الممتدين في أعماق الصلة الأبدية بالله .

وهذا يعني أنه بمجرد أن يشعر الإنسان في داخله بإحساس الحرمان من مظاهر السعادة والكرامة في هذه الدنيا وتشتد عليه مرارة الإحساس بالحرمان ، يكون هذا نذيراً خطيراً أنه بدأ ينفك عن أعماقه ويهجر عظمته الداخلية وغناه وخلوده وأسباب فرحه ورجائه الأبدي ، وخرج ينعي حظه العاثر ، و يقيس قامته على التوافه من أمجاد الدنيا والمظاهر والزائلات التي تحت أرجل الآخرين .

أما ذلك الإنسان الذي وقع عبداً للرغبة في المزيد والإرتفاع ، يلهبه الشوق للتحرك غير القانع من قة إلى قة بحماس ونشاط وطموح لا يرتوي ، فالخدعة التي تحركه للمزيد هي هي بذاتها تكون له طريق الفكاك ، لأنه بقليل من التروي يمكن أن يدرك أن

« الرغبة في المزيد » لا يمكن أن تقف عند حد لتحقق له القناعة أو الرضى بالواقع ، مهما حاول أن يقنع ذاته و يضبط طموحاته ... لماذا ؟

لأن « **الرغبة الملتهبة في المزيد** » هي في جوهرها هبة كيانية غُرست في طبيعة الإنسان لتناسب نموه في اللانهائيات لا لتنحصر في المحدود من الزائلات ، فالرغبة الملتهبة في المزيد التي لا تنتهي ولا تشبع ولا تقف عند حد ، جديرة حقاً بما هو للإلهيات .

لذلك ، ففي اللحظة التي فيها يربط الإنسان « **غريزة رغبته الملتهبة في المزيد** » بما هو لها حقاً ــ أي فيما لله ــ تنتهي الخدعة العظمى ، و يتوقف الإنسان فجأة عن الجري اللاهث في حلقة الطموح المفرَّغة وراء الزائلات ، و يبدأ ومن أعماقه يشق طريقه نحو الله إلى مالانهاية مع قناعة في الأمور المادية تزيده نجاحاً .

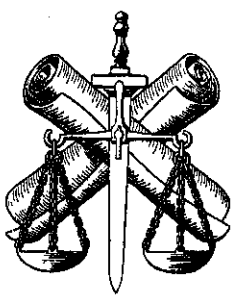

على مدى الصوم الكبير كله تتركّز القراءات في الكنيسة على كيف سقط آدم وكيف انتقل الموت للجميع تمهيداً لعملية رفع الخطية بموت المسيح على الصليب.

— ٣ —

المعرفة والخطية

□+□+□

أولاً: الخير عنصر طبيعي في الإنسان

الإحساس الداخلي يؤكّد تأصُّل طبيعة الخير في الإنسان:

إن إحساس الإنسان بالراحة والطمأنينة بعد إتيان عمل من أعمال الخير والفضيلة يقابله الإحساس بالأسف والندم والكآبة بعد التورط في عمل الشر. هنا يقوم الدليل العملي الذي يستند إلى شاهد داخلي في النفس لا يخطىء على **تأصُّل طبيعة الخير في الإنسان** كجزء أصيل في كيانه الروحي.

وإن كان بعض العلماء يحاول التقليل من قيمة نوازع الخير في الإنسان، فيُعْزونها إلى التربية وعوامل البيئة وتهذيب الضمير بنواميس الأديان المختلفة، ويحاولون في نفس الوقت وصم الإنسان بتأصل الشر والحيوانية والشراسة في طبيعته، مستندين في ذلك إلى حالة الهمجية والتوحش التي وُجدت عليها بعض قبائل الإنسان في الجهات النائية والمنعزلة، إلا أن هذا الإدّعاء مردود عليه.

فأولاً:

إمكانية تهذيب الضمير البشري بالفضائل الروحية — هي بحد ذاتها — دليل قائم على وجود عنصر الخير، بالإضافة إلى صلاحية طبيعة هذا الضمير. لأنه لو كان ضمير الإنسان مجبولاً على الشر، لكان من المستحيل استحداث أي خير روحي فيه. أما وقد

استوعب الضمير البشري كل عناصر الخير الروحي الأسمى، وارتاح إلى الفضائل الممتازة حتى وإن عجز عن تكميلها أحياناً، ففي هذا كفاية للتدليل على طبيعة الخير الكامنة في الضمير، بل وإشارة واضحة إلى الغاية السامية من خلقته. وواضح أن تهذيب الخير والصلاح الذي يستهدف له الضمير ويجوزه بنجاح مستمر ليس هو في الواقع مجرد انتقال من حالة إلى حالة تماثلها، ولكنه يشكّل في الحقيقة حالة فائقة بالإنتقال من مستوى طبائع جسدية إلى مستوى روحي من الفضائل السامية التي لا تمتُّ إلى الطبائع الحيوانية على الإطلاق.

ثانياً:

قبول الفكر البشري للنواميس الأدبية قبولاً طبيعياً سهلاً، واستيعابها، والإنشغال بها أحياناً إلى حد يفوق جميع الإلتزامات الطبيعية الأخرى، يُحسب هو الآخر دليلاً على رقي الفكر الإنساني رقياً أصيلاً ومتجذراً في طبيعة الإنسان، وإن كانت قد طمسته معالم البدائية والإهمال. أما لو كان الخير عنصراً غريباً عن طبيعة الإنسان أو ليس من طبيعة الفكر البشري، لما أمكن أن يستهويه التفكير إلى هذا الحد الذي يحتل أحياناً المكانة الأولى فيه.

والقول بأن الإنسان البدائي وُجد لا يفكر ولا يحس بهذه النواميس، فذلك يعود لا إلى غياب هذه النواميس المطلق من طبيعته، بل لأنه محروم منها وحسب تحت ظروف قاهرة، تماماً مثلما يوجد إنسان تكون الخطية قد استهوته ثم استعبدته، فلا يحسب ذلك أن الخطية سيد مطلق يفوق سلطان الخير في الإنسان، بل مردُّها أن الإنسان لم يتذوق بعد جمال الخير وسمو البر وقوته التي تفوق في سلطانها كل ما عداها.

ثالثاً:

البشرية في مجموعها لم تتقهقر، بل تمتد وتنمو في الخير كغاية. ونحن لم نسمع قط منذ الدهر أن إنساناً بعد أن يكون قد تذوق جمال الخير وأحبه واستوعب نواميس الفضيلة

والأدب، يعود فيرتد و يصير إنساناً همجياً أو متوحشاً فاقداً للحس الروحي، لأن هذا يمكن أن يحدث فقط إذا كان الشر والتوحش والهمجية هي الطبيعة الأصيلة في الإنسان، يعود فيرتد إليها تلقائياً!!

والحقيقة إننا دائماً أبداً نجد العكس، فالشعوب كلها ترقى، والإنسان في مجموعه الكلي يسمو بإنسانيته، وفي هذا دليل على نزوع الإنسان دائماً نحو طبيعته الأصلية التي وإن كان قد حُرم منها أجيالاً طويلة متعاقبة عن عجز أو إهمال أو لعامل طارىء، فإنه بمجرد تعرُّفه عليها لا يرتد عنها.

وحالة النمو الدائم و بإطراد التي يمر فيها الضمير والفكر الإنساني عامة لإستيعاب الحق والخير يجعلنا نؤمن أن الخير والصلاح الروحي هما هدف أصيل في طبيعة الإنسان، وقد وُضعا فيه لسعادته، لأن النمو الواعي يقوم أساساً على الإشتياق الطبيعي، ولا يمكن أن الشيء ينمو إلا فيما وُضع له، كنمو النبات الطبيعي نحو الضوء. والنمو يشير إلى غاية تلقائية يسعى إليها. فإذا انصاع الإنسان في تيار هذا النمو عن رضى وعن وعي، نجد أنه يتجه تلقائياً نحو مصدر راحته وسعادته.

وفي الحقيقة، نحن نجد أن الراحة والسعادة اللتين يستشعرهما الإنسان في استيعابه للحق وسلوكه في الخير تصبحان في حد ذاتهما الدافع الحقيقي الذي يشجعه للإستمرار والإستزادة من الحق ونموه في الخير، مهما واجه من المعاناة والمعوقات بل والمضايقات أيضاً التي لا يمكن أن يخلو منها طريق الحق والخير والصلاح!!

ومن هذا نرى أن نمو الإنسان في الحق والخير، واستشعاره الراحة فيهما وتذوُّقه للسعادة الكامنة فيهما، مع احتماله للمعاناة بل وتضحيته أحياناً بكل لذة جسدية وسعادة زمنية في سبيل احتفاظه بالحق والخير الأسمى، لهو أكبر دعامة يمكن الإستناد عليها في تدليلنا على أن الخير عنصر طبيعي في الإنسان!

فالإنسان «**مخلوق على غير فساد**»، أو على الوجه الإيجابي هو مخلوق للسعادة والخلود؛ لذلك إن هو فسد وتعطلت سعادته لعوامل عارضة، نجد أن بقاء إمكانية عودته للخير والبر والقداسة لا تزال قائمة أبداً وحتى آخر نسمة من حياته، مما يشير بكل وضوح إلى صلاح خلقته وصلاح خالقه!!

أما الشر والخطيئة فليس لهما طبيعة خاصة ثابتة:

لأننا إذا بحثنا في طبيعة الأعمال، لا نجد للشر والخطية فيها طبيعة خاصة جامدة أو أصلاً ثابتاً تنحدر منه. فالعمل الواحد يمكن أن يكون خيراً كل الخير تحت ظروف خاصه، فإن تغيرت هذه الظروف صار نفس العمل شراً مُسْتَطِيراً. فالمحكوم عليه بالإعدام يُقتل، و يعتبر قتله عملاً من أعمال الخير لصالح المجتمع الإنساني. والرجل يعرف امرأته لينجب الأولاد، وهذا خير. كذلك الإنسان يصوم متنسكاً متعففاً ممتنعاً عن الأكل بإرادته، وهذا أيضاً خير. أما إذا قام إنسان على أخيه وقتله، أو إذا اغتصب رجل امرأة غيره، أو إذا منع الطعام قسراً عن إنسان جائع مسكين، فهذه الأعمال كلها تُحسب شراً مستطيراً.

وهكذا إذا عدنا وفحصنا هذه الأعمال الخيِّرة وهذه الأخرى الشريرة، نجد أن طبيعة العمل فيها واحدة تماماً، ولكن حينما تغيرت الظروف التي لابست العمل ودعت إليه تغير العمل كلياً وأُدرج بجملته تحت الشر الخطير بعد أن كان هو هو الخير الكثير.

و بالتجربة والقياس على مدى الأزمان والقرون، وجدنا أن ناموس الحياة الأصلح ومجال العمل اللانهائي موضوع بل ومغروس في طبيعة الإنسان لسعادة الإنسان، سواء كان فرداً أن جماعة أو شعباً أو شعوباً برمتها، بل ووجدنا أيضاً أن هذه السعادة ليست جزئية بل هي سعادة متصلة أسبابها بين الجسد والنفس، للحياة الحاضرة والمستقبلة أيضاً!! وما الشر والخطيئة إلا غياب جزئي في مسار ناموس الخير.

و بناءً على ذلك، نستطيع أن نرى الشر من حيث ظروفه وأهدافه أنه عمل مجرد عمل

كباقي الأعمال، لا فرق، ولكن يكون قد خلت منه عناصر الخير، فآل هذا العمل إلى إساءة لفرد آخر أو لمجموعة أفراد، أو حتى لنفس الإنسان ومستقبل حياته.

ويمكن أيضاً أن نقول عن الخير أنه عملٌ أيضاً كباقي الأعمال إنما يستمد نوازعه وأسبابه وغاياته من إلهام الخير الذي ينبع من المصدر الذي يقود الإنسان إلى مستقبل حياته الذي يفيض عليه بالخير والسعادة.

فالشر حالاتٌ سلبية لا أصل لها كطبيعة، ولا وجود لها في ذاتها ككيان قائم بذاته بدون فعل، وإنما تقمَّصت أعمالاً كانت للخير أصلاً وانحرفت بها عمَّا وُضعت له.

ومن ذلك تتضح نتيجة في غاية الأهمية وهي أن الخير عنصر طبيعي إيجابي أصيل، أما الشر فهو تكييف سلبي طارىء يتخذ وجوده وكيانه في غيبة من الخير باستحداث انحراف يسوقه على عمل أصيل من أعمال الخير.

فالكذب هو **إخفاء** للحق، أو **قلب** لأوضاعه، أو **تغيير** في مضمونه. أي أن الكذب يتخذ وجوده فقط من التعدي على الحق، ولكن لا وجود له هو في ذاته.

أما الحقيقة فهي حالة إيجابية موجودة، تستمد وجودها من مصدر الحق الثابت الأزلي أي الله.

لذلك يُعتبر الإنسان الكاذب أنه متعدٍّ على الله باعتبار أن الله مصدر الحق والصدق. والذي يقول الصدق فهو يؤكِّد وجود الحق، و بالتالي يؤكد وجود الله ذاته.

لذلك يتحتم بالتالي لكي يوجد الكذب أن يكون الصدق والحق موجودين أولاً وجوداً ذاتياً مطلقاً وثابتاً، حينئذ يتركب الكذب الذي لا يزيد عن كونه إنكاراً لوجود هذا الحق بأي صورة من الصور قولاً أو عملاً.

كذلك فالسرقة تعتبر سلباً للأموال وللحقوق، والأموال والحقوق أمران طبيعيان

إيجابيان يلزم وجودهما أولاً حتى يمكن للشر أن يستغلهما و يستحدث منهما وجوده السلبي .

والزنا أيضاً هو اضطجاع خلسة غير شرعي ، فالشرع قانون إيجابي للخير يلزم وجوده أولاً حتى يمكن أن نضبط الزاني كمخالف للشرع .

وهكذا يتبرهن بوضوح أزلية الخير وأبديته وإيجابيته المطلقة ، كما يتبرهن استحداثية الشر وسلبيته وحتمية زواله !!

ولكن استحداث الشر السلبي من صميم الخير الإيجابي هو عملية لا تمس كيان الخير أو مصدره ، فلا يصح مثلاً أن يُقال أن الخير سبب لوجود الشر ــ حاشا ! ــ فالخير خير ، ولا يمكن إلا أن يكون خيراً فقط . إنما الشر استحدث وجوده فقط عندما نجح في إبطال أهداف الخير في عمل من أعمال الخير . فالشر هو توقُّف أو انعدام للخير . فكيف يتولَّد منه ؟ فالشر كالظلمة تماماً ، فالظلمة لا تُشتقُّ من النور ، ولكن تتخذ وجودها عند غيبة النور أو بإخفائه عمداً .

* * *

ثانياً : والمعرفة هي التي أولدت الخطية

لا يمكن أن نني موضوع السقوط في الشر والخطية حقه من الجهة العملية ، إلا إذا استعرضنا أمام ذهن القارىء الأصل الأول الذي دخلت منه الخطية إلى طبيعة الإنسان الأول .

فموضوع الخطية الأولى ودخولها العالم واجتيازها إلى جميع الناس أمر له شأنه في العقيدة وفي الأبحاث الروحية واللاهوتية والفلسفية ، والذين خاضوا فيه وأدلوا برأيهم كثيرون ، روحيون ولاهوتيون وفلاسفة ، ووجهات آرائهم متعددة متباينة لا تخلو جميعها من طرافة وطلاوة وجمال ، غير أن بعضها قد حاد عن جادة الحق والذوق السليم .

والأمر كله يتعلق بموضوع « **معرفة الخير والشر** » ، كما وردت في معاني وألفاظ قصة

التكوين التي طرحها الوحي الإلهي أمام فكر الإنسان بعمق لا يجاريه إلا مَن كان على مستوى الوعي الروحي الفائق، بالرغم من بساطة مظهر القصة وألفاظها السهلة وتصويراتها البديعة المختصرة، التي يمكن أن يحيط بها عقل الطفل.

ماهية الخطيئة الأولى:

خطية آدم الأولى لم تنبع أصلاً من طبيعة آدم. فالله خلقه على غير فساد، وإلا حُسبت طبيعة آدم سيئة الخَلْق. وحاشا لله! فسفر التكوين يقول عندما خلق الإنسان: «ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جداً.» (تك ١: ٣١)

لذلك فإن خطية آدم الأولى لم تكن شهوة أكل أو كبرياءً أو زنا، كما حاد بها بعض المفكرين، ولو أن هذه كلها هي بعينها الخطايا الفرعية التي تولَّدت من الأصل الذي يتفرع ويتولَّد منه جميع الخطايا الأخرى. إذ لو كانت الخطية الأولى شهوة أكل فكيف يستقيم أن شهوة الأكل يتولَّد منها كبر ياء أو حقد أو زنا؟

لذلك يتحتم أن **الخطية الأولى لا تكون على مستوى أي خطية بل يلزم أن تكون على مستوى كل الخطايا**، أي تصلح أن تكون الأصل الذي يتولد منه جميع الخطايا. ومعروف قطعاً أن المحرك الأول والأساسي للخطية هو العقل، أي المعرفة، التي كان يُطلَق عليها في الفكر الآبائي القديم كلمة νοῦς وهي تُترجم «عقل» أو «قلب». والمسيح أشار إلى ذلك بوضوح عندما قال إن «من القلب (العقل) تخرج أفكار شريرة قتل زنى فسق سرقة شهادة زور تجديف.» (مت ١٥: ١٩)

فالخطية الأولى كانت بلا شك مختفية في **شهوة المعرفة** «معرفة الخير والشر» في غيبة من الله.

من أين نبعت الخطية الأولى:

والأمر لا يحتاج إلى برهان أو إثبات. فالقصة واضحة، والكلمات ليس فيها غموض. ولا تحتاج إلى تأويل. فالشجرة شجرة **حقيقية** اسمها «**شجرة المعرفة**». هنا

كلمة «حقيقية» ἀληθινόν ضرورة مطلقة، لأن الشجرة لا يمكن أن تكون معرفة ولا المعرفة شجرة، إلا إذا ارتفع مستوى الشجرة إلى مستوى الحالة المتجلية التي كان فيها آدم مع الله في الفردوس. والمثل عندنا ظاهر في قول المسيح عن نفسه إنه هو **الكرمة** (الشجرة) **الحقيقية**، وأن عصيرها هو دمه المعطي الحياة، فهو شجرة الحياة، ويمكن الأكل منها «مَن يأكلني فهو يحيا بي» (يو٦: ٥٧). هنا الوصف أعمق من أن يكون رمزاً أو تأويلاً، بل حقيقة، ولكن بصورة متجلية أي فائقة عن الحس البشري العادي.

فكما أن الحياة هي القوة السرية النابعة من شجرة الحياة (المسيح)، كذلك معرفة الشر والموت بالتالي هي القوة السلبية النابعة من الأكل من شجرة (الخير والشر)، وكما أن كل مَن أكل من شجرة الحياة يأخذ حياة يحيا بها إلى الأبد «مَن **يأكل** جسدي و يشرب دمي فله **حياة** أبدية» (يو٦: ٥٤)؛ كذلك كل مَن **أكل** من شجرة المعرفة فإنه يأخذ معرفة **الشر**، وفي معرفة الشر **موت**. أما شجرة الحياة فقد استُعلنت لنا بشخص المسيح، ليس بالرمز ولا بالتأويل، بل بأكلنا أكلاً حقيقياً منها بقلبنا أي بفكرنا أي بإيماننا ثم بعد ذلك بفمنا (الجسد والدم)، ولكي يكون أكلنا منها أكلاً **حقيقياً** يتحتم أن يكون أولاً بعقلنا وقلبنا (إيماننا)، وهكذا نستقبل بإحساسنا الداخلي الحياة الأبدية وهي تسري في كياننا.

كذلك شجرة معرفة الخير والشر لم تكن بالرمز ولا بالتأويل بل كانت شيئاً شهياً للعين فعلاً كما كانت بالسابق شهية للعقل حتماً. فأكل منها آدم بعقله قبل فمه، وإلا ما كان أكل إطلاقاً، وهكذا أحس بالمعرفة، وعرف الشر، وأحس في الحال أن الذي عمله كان مخالفة فذاق الموت، أي غياب الحياة أي غياب الله عن كيانه، ذوقاً مرًّا بعقله ثم جسده. ولا زالت شجرة معرفة الخير والشر بأثرها باقٍ فينا إلى اليوم، نشتهي معرفة الشر بعقولنا، ثم نشتهي بعيوننا وحواسنا فنميل إلى الشر فنتورط فيه، فنحس بالمعرفة الخاطئة وبالخطية تسري في كياننا حاملة إحساس الإنفصال عن الله أي الموت تلقائياً. وهكذا

تقودنا المعرفة كل يوم إلى فعل الشر ثم بالتالي إلى حكم الموت تلقائياً.

* * *

حالة آدم قبل السقوط من جهة المعرفة:

كان آدم يحيا في حالة معرفة الحق وحده والبر الكامل بلا انقسام يستمده من الله وحده، لا شريك له، بلا عناء، بعقله الإيجابي أي المستقبِل والمذعِن للحق فقط، فكان آدم عالماً بالحق، حكيماً. وإنما معرفته وحكمته لم تكن اختبارية من ذاته كأنها ناتجة من تجربته الشخصية عن طريق الخطأ والصواب ثم الإستنتاج، وإنما كانت معرفته وحكمته قوة موهوبة له من الله مصدر الحق والحكمة.

وكان آدم يحيا بمقتضى هذه المعرفة الحقة الإيجابية التي بلا أي انقسام والموهوبة له عاملاً بها بطبيعته دائماً بما لا يتعارض مع أي دافع أو هدف آخر مضاد للحق، كما كان يستمد نوره من الله، فكان يعمل الحق بحرية إرادته. **وكان مظهر هذه الحرية هو استطاعته أن يعمل الخير و يفكر بالحق بإرادته و بسرور.**

أما مجازاة آدم لعمله بمقتضى مشورة الخير التي كان يتقبلها من الله بعقله وقلبه فكانت **دوام** وجوده في ذلك الخير **ونموه** فيه!

كيف أن آدم كان قادراً تماماً أن لا يخالف أمر الله:

وحينما حذَّره الرب الإله أن لا يأكل من شجرة معرفة الخير والشر، كان هذا يحمل ضمناً تأكيداً أن آدم كان قادراً قدرة كاملة أن لا يخالف أمر الله، بمقتضى إرادته الحرة، لأن صنع الشر لم يكن حتى هذه اللحظة في طبيعة آدم الخيِّرة، فآدم كانت تسنده موهبة الله و بره كامتياز يليق بطبيعة آدم ــ المخلوق على صورة الله ــ الخالية من كل شر. فطالما أن آدم يستمد من الله فكره وعمله وحريته، فهو لا يمكن أن يقع في مخالفة الله أو في الشر أو الخطية، ولكن الله كان يعلم أن في اللحظة التي يستقل فيها آدم عنه، فإن

نعمة الله ستتخلى عنه في الحال(*). آدم خُلق كاملاً، ولكن كماله كان بالله ومع الله فقط. فإذا استقل آدم بحريته عن الله وابتعد عنه بفكره أو إرادته أو حريته، أصبح قابلاً للسقوط والفساد والموت.

وهكذا كان آدم مهدَّداً، إن هو ترك الله، أن يفقد هذه الهبة وهذا الإمتياز الذي يحفظه في الخير الكامل، وكان من صميم طبيعة آدم هذا الرباط رباط الإمتياز الفائق الذي كان على آدم دائماً الإحتفاظ به بحريته. ولكن إن هو استهان بهذا الرباط، واستقل بحريته، فإنه يصبح في هذه اللحظة قادراً أن يخالف الله لأن «مَن ليس معي فهو عليَّ» (لو١١: ٢٣). فالإنسان قد أُعطِيَ منذ البدء أن يختار إما أن يبقى مع الله فيقوده الله إلى الخير والصلاح أو يصبح ضد الله، فيفقد قدرة الإنجذاب إلى الله فتقوده حرية إرادته إلى الخطأ.

لذلك سبق الله وحذَّره، حتى إذا تورط في الدخول إلى الإستقلال بحريته التي هي من صميم طبيعته أن لا يتمادى أكثر من ذلك إلى الفعل ويمد يده و يأكل، فتنفصل حريته إلى الأبد عن الله، وتصبح عودته إلى الإلتصاق بالله أمراً مستحيلاً، لأن الحرية والإرادة تكون قد تمركزت في داخله و يصير آدم شخصاً مستقلاً تماماً يستمد فكره وحركته من ذاته، فيتعذر عليه بل و يستحيل أن يرتفع فوق ذاته.

كان لا يمكن لآدم أن يشتهي معرفة الشر، لولا دخول عنصر إيحائي جديد على فكره:

وآدم لم يشتهِ أن يعرف الخير والشر من ذاته، لأن شهوة المعرفة المنفصلة عن الله لم تكن من صميم طبيعته أصلاً، لأن في مثل هذه الشهوة مخالفة مباشرة للذي قال له لا تأكل من شجرة معرفة الخير والشر، والله لم يخلق آدم بطبيعة مخالفة في سلوكها.

(*) الله كان يكمِّل الذات البشرية ويحفظها في حالة الكمال. فلما استقل آدم بذاته، اعتراه نقص مفاجيء مهَّد للشر والخطية.

ولكن أول تنبيه واجه ذهن آدم عن مدى وعظمة وأهمية **معرفة الخير والشر** ومقدار سمو درجة الإنسان إذا هو تحصَّل عليها ليصير في درجة الله الكلي الخير والكمال وَصَلَ آدم لا عن طريق تفكيره الشخصي أو تصوُّره الخاص بل عن طريق آخر غير ذاته. فلما أدرك آدم ــ إدراكاً مشوباً بالخداع وإخفاء النتائج والمصائب ــ إمكانية بلوغ درجة الخير والكمال العظمى التي لله نفسه عن طريق هذه المعرفة الجديدة، **اشتهاها كأنها خير.** علماً بأن الشهوة هنا لا تزال من طبيعة آدم الخيِّرة، فهي شهوة في نطاق الخير، ولكن السم المدسوس فيها والذي لم تلحظه طبيعة آدم هو أن هذا الخير متصل بالشر «معرفة الخير والشر معاً»، وفي نفس الوقت منفصل عن الله لأنه أمر منهيٌّ عنه، و يستحيل أن يدوم خير مطلقاً إن كان منفصلاً عن الله. فآدم اشتهى معرفة الخير والشر المستقلة على أساس إمكانية دوام حالة الخير والسعادة التي كان يحياها في اتصاله بالله أيضاً. وكان يظن أن معرفته لما يسمى «بالشر» لن تؤثِّر عليه، لأنه كان لا يزال متمتعاً في أعماقه بثقة امتيازات الصلة مع الله.

ولكن آدم لم يكن يظن أن اشتهاء معرفة الخير والشر معرفة شخصية ذاتية، ليكون كالله عن طريق اختباره الخاص، كان هو هو الإستقلال عن الله بالضرورة و بالتالي الإرتداد إلى الذاتية!! وكان يتبع ذلك بالضرورة أيضاً القيام بأعباء الحياة بمفرده على أساس معرفته الجديدة الخاصة. ولم يكن آدم يتصور أن مثل هذه الرغبة في الإنفراد بأعباء الحياة تحمل ما حملت من هموم وكوارث وعجز وقصور وخطايا بلا حصر وموت.

جاز آدم على كل هذه الدرجات من التفكير قبل أن يمد يده و يأكل من الشجرة، وكان يمكنه بكل تأكيد أن يتدارك الأمر، حتى قبل لحظة الفعل ومدّ اليد والأكل، بأن يرفض هذه المشورة المسمومة، وعلى أساس وجود هذه الإمكانية قال له الله سابقاً «**لا تأكل** من الشجرة.» (تك ٢: ١٧)

إنْ تركتموني أترككم:

ولكن آدم كان يباشر حريته في غير وضعها الأصيل عندما فتح أذنه وعقله ووعيه

لغواية حواء والحية، عندما وجد أن هذه المشورة في دائرة حريته وإمكانياته؛ فصمَّم على الحصول على معرفة الخير والشر لنفسه. وهنا بدأ العدُّ التنازلي للسقوط المحتَّم. وبمجرد تنفيذ الفعل بمقتضى حرية شهوته، فقد في الحال كل الإمتياز للوجود في الحضرة الإلهية التي كانت تسنده، وانحل هذا الرباط العجيب الفائق الذي كان يجمعه إلى الله في ألفة المودة الفائقة.

لقد اشتهى آدم أن يعتمد على ذاته و يصير عارفاً الخير والشر بذاته ــ ولمَّا تمَّم وأكل بالفعل من ثمرة شجرة معرفة الخير والشر مؤكِّداً رغبته بحريته، ومسجِّلاً على نفسه هذا الفعل مع سبق الإصرار؛ وجد نفسه وحيداً منفرداً و بدون الله و بلا حفظ، عرياناً، حيث العُرْي هنا هو عُرْي حقيقي أيضاً أي يشمل فوق العري الجسدي عرياً من كل ما هو حق!!

كل إيحاءٍ ليس من الله، لا يُعتبر في مظهره خطيئة ولكن يؤدي إلى الخطيئة:

وقد علمنا أن آدم لم يكن يخطىء أو يخالف أو يشتهي غير ما يشتهي الله، بحسب طبيعته الخيِّرة المخلوقة على غير فساد، ولا كان يستطيع ذلك قطعاً قبل أن يأكل من شجرة المعرفة و يعرف الشر، فيسوقه الشر إلى التورط في عملٍ حُسب له على مستوى المخالفة أو العصيان ومن هنا بدأ مسلسل الخطايا بأسرها. إذن، فيتحتم منطقياً أن تكون نقطة البداية في مخالفة آدم لوصية الله **شيئاً آخر غير الخطية نفسها** التي انتهى إليها، **وشيئاً آخر غير المعرفة الخاطئة**، وإلا نُسب إلى الله أنه جَبَل آدم بطبيعة خاطئة ومعرفة خاطئة وحرية خاطئة، وحاشا! فالله خلق آدم على صورته وخلقه «حسناً جداً».

ومن ذلك يظهر أمامنا تدخُّل عامل ليس من طبيعة آدم، **استقى منه آدم إيحاءً جديداً** غير الذي تعوَّد أن يستمده من الله للسير به في طاعته الخيِّرة المطلقة. وكان يُشترَط في هذا الإيحاء الجديد أن يكون خالياً تماماً من أي تعارض مع الخير، وإلا تعذَّر على

طبيعة آدم الخيِّرة قبوله. لذلك كان لابد، لكي يخطىء آدم بواسطة الإيحاء الجديد، أن ينحصر هذا الإيحاء الخطير في مجرد إعطاء آدم **إمكانية معرفة جديدة قد تسوقه للمعرفة الخاطئة فيخطىء.**

وقلنا «قد» لأنه لو كانت هذه الإمكانية ستسوقه حتماً للمعرفة الخاطئة لكانت تُحسب خطية، وَلَدلَّ قبولها على استعداد طبيعي للخطأ والشر في طبيعة آدم، وحاشا لله! ولهذا السبب بالذات سبق الله وحذَّر آدم من قبوله الأكل من الشجرة لأنه كان يجهل الشر. لذلك فإن الله اكتفى بإعطاء آدم كل الإمكانيات الإيجابية الطبيعية حسب خيرية طبيعته لرفض أية فكرة من دون الله، لكي يجنِّبه خداع الشيطان لأن الله كان يعلم أن إيحاء الشيطان يكون دائماً على مستوى الخير الكاذب، ولن يفلت الإنسان من إيحاء الشيطان إلا بالرفض القاطع.

الجزاء من نوع العمل:

لذلك كان من جراء عدم استخدامه لهذه الإمكانيات المتاحة له، أنه عوقب بالفعل عقاباً تلقائياً متساوياً تماماً مع شهوته وإرادته. فهو اشتهى أن يعرف الشر، فعرفه. وتمنى أن يستقل بمعرفته استقلالاً ليكون كالله عارفاً للخير والشر بذاته ومن نفسه، فصار بالفعل وتلقائياً عارفاً بذاته ومن نفسه، ولكن لم يستطع ولا إلى لحظة واحدة أن يحتفظ بالخير وحده فسقط في الشر وكانت النتيجة وَبَالاً عليه وعلى كل بني جنسه، وكان الله في ذلك غير مجحف في حكمه، بل عادلاً كل العدل.

الفارق بين الفكر بدون التصميم على الفعل، وبين الفعل ذاته مع سبق الإصرار:

ويلاحَظ من تسلسل قضية معرفة الخير والشر والسقوط، أنه كان هناك فرق واضح بين فعل الأكل من الشجرة وبين مجرد الفكر والتمني للأكل من الشجرة. كما يوجد أيضاً فرق بين فكرة الأكل من الشجرة عن قصد المخالفة والخروج عن طاعة الله، وبين مجرد

التفكير للأكل من الشجرة بنية لا تحمل قصد المخالفة أو مقاومة الخير والحق.

لهذا نجد أن الله لم يحدد الجزاء أو العقوبة (الموت) على أساس مجرد فكرة الأكل، ولكن حدد الجزاء على الأكل الفعلي. وذلك لأن مرحلة الفكر قابلة للتعديل بإمكانيات الفكر الخيِّر ذاته. من أجل هذا، و بناءً عليه، سبق الله فحذر آدم لكي يستخدم قدرته الخيِّرة ليرفض فكر الشهوة وحركة التمني في القلب حتى لا يقع تحت التصميم والإصرار على الفعل.

على أن نوع الفكر الذي كان يعانيه آدم قبل الأكل يهمنا جداً. إذ أنه يستحيل قطعاً أن يكون آدم قصد بالفعل مخالفة الله، لأن طبيعته الخيِّرة تمنع.

لذلك لابد أن تكون طبيعة الدافع الفكري الذي دفع آدم للتورط في الأكل لا تتعارض مع طبيعة آدم الخيِّرة، وفي نفس الوقت يمكن أن تحرر آدم من الإلتزام بطبيعة الخير وحده فيسقط فيما هو ضده.

وهكذا نستطيع أن نحصر كيف قدَّم الشيطان إيحاءه الرقيق الخطر أن يأكل آدم ليصير كالله عارفاً بالخير والشر معاً، عوض أن كان عارفاً بالخير فقط وليس في هذا أي شر ظاهري أو ما يمكن أن يتعارض مع طبيعة آدم.

ولكي ينفي الشيطان أية خطورة من هذه المعرفة المنقسمة على ذاتها بين الخير والشر، أعطى تعليلاً مناسباً وخيِّراً حسب الظاهر ليسهِّل قبول هذه المعرفة بما لا يحتمل أي شك بقوله: «**تصيران كالله**». ومعلوم أن الإنسان مخلوق أصلاً على صورة الله، **فالمشورة هنا متناسقة مع الإمكانيات.**

الأصل الذي انحدرت منه جميع أنواع الخطايا:

وهكذا نجد أن نقطة البداية لحركة سقوط آدم لم تكن خطية في الأصل، ولم تكن معرفة للشر، بل قبولَ مشورةٍ جديدةٍ مصدرها ليس هو الله، ولم يكتشف فيها آدم في

البداية المخالفة العقلية التي تضمنتها؛ لأن كَوْن آدم يسمع لغير الله فهذا هو بعينه بداية العصيان، وقد قدَّم له الشيطان هذه المشورة بصورة تقبلها طبيعته لإشتمال المشورة على إمكانية وهمية للإرتقاء إلى حالة أعلى من طبيعته وأسمى، أي يصير كالله في معرفته للخير والشر.

«تفاحة» آدم لم تستقر في حلقه بل استقرت في عقله:

ونحن لو حلَّلنا هذا العرض في ظاهره وحسب غايته المزعومة وهدفه الموهوم، لوجدناه عرضاً لا غبار عليه، إذ سيكون آدم كالله نفسه عارفاً بالخير والشر من ذاته. ولكن ما هي العواقب الحتمية التي ستحدث بعد ذلك؟ هذا ما أخفاه الشيطان عن آدم.

إذ بمجرد أن انصاع آدم للمشورة وانتقل من مجرد الفكر إلى التصميم ثم التنفيذ، ومدَّ يده بالفعل ليأخذ و يأكل، كانت المعرفة الشخصية والمنفصلة عن الله قد اتَّخذت مكانها في العقل قبل أن تصل الثمرة إلى البطن. فتفاحة آدم لم تقف في حلقه بل استقرت في عقله، لأن إرادة آدم انصاعت للتنفيذ مع سبق الإصرار نحو طلب المعرفة، بل واشتهاها آدم من دون الله قبل أن يأكل.

كان آدم يظن أنَّ في إمكانه أن يعرف الشر كالله ولا يسقط فيه، ولكن هيهات! فمجرد استقرار معرفة الشر في عقل الإنسان كفيل بسقوط الإنسان، فليس آدم كالله. والخير الواجب الوجود الذي لا يزول ليس كالخير المكتَسَب ــ أي المخلوق ــ الذي يُهدَّد دائماً بالزوال. لأن الخير، الذي هو الحق الحافظ والساتر من الشر والخطية والذي يعتمد عليه آدم، كان مكتسباً من الله. وكان هذا الحق الحافظ مهدَّداً بالزوال بمجرد الإبتعاد والإنفصال عن مصدره.

لم تكن معرفة الشر خطية في حد ذاتها، ولكن الخطية توجد رابضة دائماً أبداً و بإصرار وعنف بباب المعرفة، إن هي انحازت للشر، ولا مفر من السقوط فيها إذا لم تسند الإنسان معونة فائقة والإستماع المستميت لصوت الله. فلما ارتفعت المعونة الحافظة بالإبتعاد عن

الله، توقف صوت الله، فكان لابد أن يسقط آدم في ورطة معرفة الشر التي أولدت له جميع أنواع الخطايا رغم إرادته «لأن الإرادة حاضرة عندي، وأما أن أفعل الحسنى فلست أجد. لأني لست أفعل الصالح الذي أريده، بل الشر الذي لست أريده فإياه أفعل.» (رو٧: ١٨و١٩)

* * *

هنا نستطيع أن نقول إن آدم تقبَّل إمكانية الخطأ لما تقبَّل معرفة الشر بإرادته الحرة كشهوة ومن دون الله، الأمر الذي حُسب له على مستوى العصيان. ومع أن معرفة الشر ليست خطية في حد ذاتها، ولكن يستحيل على إنسان رُفعت عنه القوة الحافظة أن يعرف الشر ولا يخطىء!! لذلك حذَّر الله آدم أن لا يأكل من شجرة معرفة الخير والشر ــ هنا الأكل المنهي عنه على مستوى العقل والفعل ــ لأن الله كان عالماً أن هذه المعرفة ستورده حتماً مورد الهلاك. ولكن الشيطان زيَّن له المعرفة جيداً فرفعها إلى مستوىٰ الشهوة، فقبلها واشتهى أولاً بالعقل، فكان لابد أن يشتهي الأكل بالفعل، فأكل، فانفتحت عيناه وكل حواسه بعد أن انفتح عقله وعرف الخطية بالجسد.

* * *

ملخص :

أولاً : الخير عنصر طبيعي في الإنسان :

+ الدليل العملي على تأصّل طبيعة الخير في الإنسان هو الإحساس الداخلي بالراحة والطمأنينة بعد فعل الخير، والأسف والندم والكآبة بعد فعل الشر.

+ يحاول بعض العلماء التقليل من قيمة هذا الإحساس الداخلي فيعزونه إلى التربية وعوامل البيئة وتهذيب الضمير، والرد على ذلك :

١ ــ إستجابة الضمير البشري للتهذيب وتقدُّمه في الفضائل الروحية بنجاح مستمر هو دليل قائم على وجود عنصر الخير في الإنسان أصلاً.

٢ ــ قبول الفكر البشري للنواميس الأدبية قبولاً طبيعياً سهلاً وانشغاله بها إلى الحد الذي يحتل أحياناً كل كيانه وتفكيره.

٣ ــ تقدُّم البشرية ككل وامتدادها ونموها في الخير والصلاح كهدف وغاية طبيعية يصبو نحوها تلقائياً كنمو النبات نحو الضوء كغاية يسعى إليها وحاجة لا يستطيع أن يحيا بدونها.

٤ ــ تضحية الإنسان بكل لذة جسدية وسعادة زمنية في سبيل احتفاظه بالحق والخير الأسمى.

+ الشر والخطيئة حالات سلبية لا وجود لها في ذاتها أصلاً، بل اتّخذت وجودها من مخالفة الخير والإنحراف به عن غايته التي وُضعت له، فالشر كالظلمة تماماً التي لا تُشتقُّ من النور ولكن تتخذ وجودها عند غيبة النور أو بإخفائه عمداً.

ثانياً : المعرفة هي التي أولدت الخطية :

+ موضوع الخطية الأولى ودخولها العالم تتعلق بموضوع «معرفة الخير والشر» كما وردت في الأصحاحات الأولى من سفر التكوين، بمنتهى البساطة والعمق.

+ خطية آدم الأولى لم تنبع أصلاً من طبيعة آدم، فآدم خُلق على غير فساد بطبيعة كاملة على صورة الله خالية من كل شر، ومعرفة للحق وحده بلا انقسام ولا عناء مستمدة من الله مصدرها وواهبها.

+ كان آدم يحيا بمقتضى هذه المعرفة الإيجابية بحرية إرادته تسنده وصية الله الذي حذَّره من الأكل من شجرة «معرفة الخير والشر»؛ تأكيداً لحريته في طاعة الله مصدر كماله ومعرفته وسعادته، وضماناً وسنداً له ضد الإنفعال لمؤثِّر آخر خلاف الله، ودليلاً على قدرته الكاملة على عدم مخالفة الله.

+ قصة الكتاب واضحة ولا تحتاج إلى تأويل. فالشجرة المحرَّمة حقيقية وهي شجرة معرفة الخير والشر، فكما أن

المسيح قال عن نفسه أنه الكرمة الحقيقية وكل مَن يأكله يحيا به والأكل هنا أكل حقيقي بالإيمان بالعقل و بالمحسوس بالفم، هكذا أيضاً كان الأكل من شجرة معرفة الخير والشر مؤدياً إلى الموت بالإنفصال عن الله مصدر الحياة الذي حذَّر آدم من الأكل منها، لأن آدم لما أكل منها اشتهى أولاً معرفة الشر بعقله ثم بعينيه وحواسه وهكذا تورط في المخالفة فأكل منها بفمه فانفصل عن الله فمات موتاً تلقائياً.

+ ولكن آدم لم يشته معرفة الخير والشر من ذاته، لأن شهوة المعرفة المنفصلة عن الله لم تكن في صميم طبيعته، ولكنها جاءت إليه من خارجه كغواية من العدو مغلَّفة بهدف التشبُّه بالله «تصيران كالله». وهكذا قبلها آدم كشهوة في نطاق الخير، ولم يلحظ الخدعة التي فيها أنها شهوة خير متصل بالشر ومنفصل عن الله...

+ بمجرد استجابة آدم للعمل بمقتضى حرية شهوته بعيداً عن الله، إرتد إلى ذاته وفقد في الحال كل الإمتياز للوجود في حضرة الله التي كانت تسنده والحبل الرباط الذي كان يجمعه إلى الله في ألفة المودة الفائقة، ووجد نفسه تلقائياً وحيداً عرياناً عرياً جسدياً وروحياً، وصار عرضة لكل إيحاء ليس من الله الذي وإن بدا في مظهره أنه ليس خطية ولكنه يؤدي إلى الخطية... وهكذا بدأ مسلسل الخطايا بأسرها.

+ إيحاء الشيطان يكون دائماً على مستوى الخير الكاذب، ولن يفلت الإنسان من إيحاء الشيطان إلاّ بالرفض القاطع.

+ أصل كل الخطايا إذن هو قبول مشورة جديدة ليس الله مصدرها.

+ الخطية تبدأ في العقل حيث إمكانيات التفكير الخيِّر القابل للتعديل، ولكن بمجرد قبول الفكر للمخالفة يصير التصميم ثم التنفيذ. فتفاحة آدم لم تقف في حلقه بل استقرت في عقله!

+ كان آدم يظن أن في إمكانه أن يعرف الشر كالله ولا يسقط، ولكن هيهات! فالخطية رابضة دائماً و بإصرار بباب المعرفة إن هي إنحازت للشر، ولا مفر من السقوط فيها إلا إذا سندت الإنسان معونة فائقة من الله، واستماتة في سماع صوت الله.

— ٤ —

الصراع العقلي ضد الخطية

■❊●❊■

العقل هو الميدان الأول الذي يتقابل فيه الإنسان مع الخطية، وهو الحدود الأمامية التي تتلاقى فيها البشرية مع عدوها الألد: الشيطان.

ولا عجب أن يختار العدو عقل الإنسان كميدان لمصارعاته العنيفة. فالعقل كما يقول أحد علماء النفس: «هو التاج الذي يعلو الجسم الإنساني و يدير دفة حركاته وسكناته سواء في اليقظة أو المنام في شعوره وإدراكه ووجدانه وإرادته وتفكيره. فهو المركز الرئيسي المسيطر على السلوك الإنساني».

إذن، فلو انهزم الإنسان في هذا الميدان فقد ملك الشيطان كل مواهب الإنسان وإمكانياته!

هذا علاوة على أن الشيطان نفسه كما عرفناه هو قوة عقلية، وهو وإن كانت له قدرات فائقة مختلفة إلا أن تأثيره لا ينفذ إلينا إلا عن طريق العقل فقط.

وهذه حقيقة هامة يعوز الكثير منا خصوصاً الذين يجاهدون الجهاد الحسن في ميدان الفضيلة والبر والتعفُّف أن يتعرفوا عليها. فالشيطان وإن كان قوة روحية هائلة إلا أن ميدان نشاطه محدود للغاية ضد الإنسان فهو لا يستطيع مواجهته إلا عن طريق العقل فقط وهو الجزء الوحيد من طبيعتنا الذي يستهدف للحرب معه.

ولكن ليس بالأمر الهيِّن على الشيطان أن ينتصر على عقل الإنسان أو أن يستطيع بسهولة اقتحام هذا الجهاز الإلهي الجبَّار. لأنه بالرغم من أن الشيطان قوة عقلية إلا أن

طبيعة هذه القوة تختلف في شيء عن طبيعة القوة العقلية في الإنسان، وهذا الإختلاف يهيىء لنا الفرصة للتعرف عليه عندما يقترب من تفكيرنا. فليس عسيراً على أي إنسان عادي أن يكشف فكرة خبيثة يدسها الشيطان له!

ولكن لا يزال أيضاً العقل البشري يمتاز عن غريمه بشيء أهم. فالشيطان قد حُرم نهائياً وإلى الأبد من أي معونة إلهية خلاف طبيعته العقلية الأصلية. أما الإنسان فهو حبيب الله الذي لم يُحرم من رحمة القدير منذ البدء، وحتى في أشد حالات نكوصه وارتداده كان ولا يزال مصباح الله (الحق) يشتعل في عقله وضميره ليهديه الخير ويجنّبه معاثر الشرير. لذلك فعندما نصطرع مع عدوّنا بأسلحة محاربتنا العقلية نجد أننا في حالة أفضل وأضمن للنصرة.

وقد برهن كثير من المجاهدين القديسين على هذه الأفضلية وهذه النصرة واستطاعوا أن يذلوا فخر الشيطان ويجبروه على الفرار مقهوراً في ميدان الحرب العقلية!

استدراج:

لا تبدأ الحرب العقلية مع الشيطان عنيفة أبداً وذلك لسببين:

الأول: هو أن الإنسان قوة مخيفة للعدو لأنها غير معروفة عنده تماماً خصوصاً إذا لم يكن الإنسان قد انسبق وانهزم أمامه بصورة واضحة أي لم تنكشف نفسه أمامه.

أما **الثاني:** فهو إمكانية معونة الله الأكيدة والسريعة التي ينالها الإنسان عند صراخه إلى الله عندما ينتبه فجأة إلى حركات العدو ويكتشفها.

من أجل هذين السببين يبدأ العدو حربه على الدوام هادئة، بتقديم مجرد مشورة أو عرض لفكرة ــ خاطئة طبعاً ــ ولكن تتناسب في خبثها مع حالة الإنسان الروحية.

عجز:

وهو بعد أن يقدّم فكرته الخبيثة المحبوكة لا يملك بعد ذلك أن يتقدم خطوة واحدة

إيجابية في تفكيرك الخاص. وهذه رحمة من الله على طبيعتنا البشرية. لأنه لو كان للشيطان قدرة التسلُّط على تفكيرنا أو إمكانية تحريك عقلنا لمصلحته ما كان في استطاعة إنسان أن يفلت من سطوته وشره.

ولكنه يعوِّض عن عجزه السابق بقدرته في التردد بنفس الفكرة بطرق مختلفة بغير كلل أو ملل. أما الإنسان فإنه يحس بهذه الفكرة المترددة على عقله و يستشعر بخبثها ولكن يرى في تقديمها علَّة ومناسبة استطاع العدو أن يستخدمها إلى أبعد حدود المكر والدهاء!

أقوى أسلحة العدو:

هذه أقوى أسلحة الشيطان: **مُناسَبَة التجربة لواقع الحال!**

ــ ولما جاع أخيراً تقدَّم إليه المجرِّب بفكرة تحويل الحجارة خبزاً!

ــ ولما شعر داود بالقلق والضجر النفسي وصعد ليتمشى على السطح قدَّم له الشيطان منظر امرأة تستحم!

فهو لن يزأر حولك دائماً كالأسد! فحينما تقف لتصلي أو في أثناء ساعات جوعك في جهاد الصوم المبارك أو حينما تجول تصنع خيراً، في هذه الساعات ما يطيق العدو أن يقترب منك لأن أمانتك وثقتك وحبك لله سهام نارية موجعة جداً له. والسبب في ذلك معروف، فهو الملاك الحانث المرتد عن الإيمان والثقة ومحبة الله. وشعوره كشعور ملحد في هذه الأيام. ولكن حينما تنتهي من صلاتك أو تفرغ من صومك أو تعود من جولاتك الرحيمة يتقدم، ولكن ليس كأسد لأنك تكون لازلت مفعماً بقوة الخير، وإنما كحية لئيمة تمزج اللين بالخبث.

يقول لك: ما أكرمك اليوم بالحق، لقد تشبَّهت بالقديسين! وما أسهل أن تصدق ذلك، لأن كلام الشيطان في القلب لين كالزيت وهو أحدّ من السيف!

والويل والحزن للعقل الذي ينخدع بمديح وتكريم الحية، لأن العدو يعود إليك في الحال ومعه صورة قديمة لإنسان كان قد أساء إليك أو امتهن كرامتك فيثير فيك مفاضلة مزعومة بين قداستك تلك وامتهان هذا الإنسان الحقير لك. وحينئذ يكون قد نجح في تقديم فكرة الكرامة في وقتها المناسب ثم يشعل ثقاب البغضة في زيت القداسة المزعومة. وحينما ينفعل قلبك و يبتدىء لهب الكراهية يرتفع حينئذ يبدأ الأسد يتحرك وقد ضمن فريسته فيجول يزأر وهو مطمئن أن النفس قد تخدَّرت بالحقد والبغضة وصارت في نصف وعيها!! فيوعز إليها بالنقمة والضربة القاضية!!

وهكذا يتناسب الشيطان و يتشكَّل في طرقه وفي حيله، فهو كالأسد حينما يملك، أو كالحية حينما تستشعر منك اليقظة، أو كالدخان حينما يفتضح أمره بصرخة استغاثة إلى الله!

ولكن سواء كان هذا أو ذاك، فلك أن تثق أنه لا يملك أن يستخدم الضغط على الإطلاق طالما لم تقبله.

فعقلك هو معقل النور الإلهي الذي لا يقوى رئيس الظلمة على اقتحامه قط إلا إذا أطفأت أنت بيدك مصباح الحق الإلهي المنير فيه بقبولك مشورة العدو إذ تكون أحببت الظلمة أكثر من النور.

ومهما كانت تفاهة الأفكار التي يعرضها العدو في الشر والنجاسة فهي لا تستطيع أن تدنِّس عقل الإنسان أو توقعه تحت أي دينونة أو عقاب طالما لم يتقبلها الإنسان أو يظهر لها علامة الرضا أو الإستحسان.

وإلى هذا الحد يظل الشيطان كعدو عاجز أمام حصن منيع.

درجات السقوط:

ولكن في اللحظة التي يتقبل فيها العقل الخطية مرتضياً بها وموقِّعاً على صك المشورة

ببصمة الإرادة الحرة حينئذ تصبح الخطية عنصراً داخل العقل.

+ فالخطية تُقترف بالعقل أولاً (اقترافاً كاملاً):
«كل مَن ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه.» (مت ٥: ٢٨)

+ اقتراف الخطية بالعقل هو عبارة عن تزاوج يتم بين مشورة شر يرة مقدمة من الشيطان وإرادة حرَّة للعقل الواعي مع حصول اتفاقٍ وتراضٍ، وإن كان الطرف الثاني أي العقل يشعر دائماً بخبث الأول وعدم صدقه، إلا أنه يخضع له لكثرة إغرائه ولباقته في العرض المحكم واستخدام الفرص المناسبة.

+ الجنين الشيطاني يتم تفريخه داخل العقل و يولد بالعمل أي بالفعل.

+ أما العقوبة المستحقه تلقائياً فهي: السقوط التلقائي من مستوى الحق أو الصدق أو الفضيلة والطهارة، و يتم قبل العمل الظاهري، وهذا يحسه الإنسان ولكن يكون كمن سُلب منه الوعي.

+ أما عدالة هذا العقاب التلقائي أي السقوط التلقائي فهو لأن الجزء الساقط من الإنسان ليس هو الجسد الترابي الفاني ولكنه الجزء الروحاني الخالد أي النفس العاقلة التي سيقع عليها الثواب أو العقاب، والتي تمثلها الإرادة الحرة وموافقة الضمير.

+ ولكن بمجرد تتميم الخطية بالجسد بالفعل يصير العقاب غير قاصر على النفس بسقوطها من المستو يات الروحية العالية، بل يتعدَّاه إلى الجسد فيجعله غير متوافق مع البر والطهارة والتعفُّف أو حياة القداسة في نور الله. وحينئذ تتسحب الظلمة على كل حواس الإنسان ظاهراً و باطناً.

كيفية الجهاد الإيجابي في الصراع مع العدو:

١ ــ حصر الأفكار الشر يرة بعيداً عن التفكير العادي وعدم قبول أي مساومة معها

أو تنازل لها.

٢ ــ تحصين التفكير العادي بالمبادىء والمثل العليا **والوصايا** أي كلمة الإنجيل، لما لها من قوة ذاتية.

٣ ــ التمرُّن على حفظ الإرادة صديقة لإيحاءات الحق والشرف والفضيلة مهما كانت التكلفة.

٤ ــ عدم التهاون بالتفكير المسترسل للعقل ليجول كيفما شاء بل يُجعل له حدودٌ في نطاق كل ما هو حق وطاهر وشريف مع تكوين علاقة وطيدة بالإنجيل والقديسين، لأنه رصيد مبارك له أكبر التأثير على اتجاهات تفكيرنا وإرادتنا أثناء العمل الجدّي أو في لحظة تقرير المواقف والمصير.

— ٥ —

كيف سيدين المسيح المسكونة بالعدل (*)

●*●*●

ـ هل سيظهر الحمل الوديع بصورة الغاضب المنتقم ؟
ـ هل ستخرج كلمات اللعنة من فمه على الخطاة ، و يترك عنه حنانه الذي غُلب يوماً من فرط تباريحه ، وغفر لهم حتى حماقة صلبه ؟
ـ هل تستريح أحشاء رحمته وهو يأمر بإبعاد الخطاة عنه إلى الأبد؟
ـ هل يتعذب الخطاة عذابهم الأبدي وهو راضٍ عن ذلك كل الرضى ؟

□□□

إن كان الجواب على هذه الأسئلة : نعم ؛ فهل تغيَّرت طبيعة المسيح ؟ و يا له من تغيير! وإن كان الجواب : لا ؛ فكيف ستتم كلماته التي قالها عن الدينونة ، وهي صادقة وأمينة ومستحقة كل قبول ؟

أنوار:

ـ « إن سمع أحد كلامي ولم يؤمن فأنا لا أدينه ، لأني لم آتِ لأدين العالم بل لأخلِّص العالم . مَن رذلني ولم يقبل كلامي فله مَن يدينه » ، « **الكلام الذي تكلمت به هو يدينه في اليوم الأخير.** » (يو١٢ : ٤٧و٤٨)

ـ « أنا قد جئت نوراً للعالم ، حتى كل مَن يؤمن بي لا يمكث في الظلمة . » (يو١٢ : ٤٦)

ـ « أنا هو الطريق والحق والحياة . » (يو١٤ : ٦)

ـ « فسيروا ما دام لكم النور، **لئلا يدرككم الظلام** . » (يو١٢ : ٣٥)

* * *

(*) نص خطاب أرسل لأحد الإخوة عام ١٩٥٨ .

سيدين المسيح العالم حينما يضيء الحق الذي في الوصية علناً و يُستعلن جهاراً ، فتتوقف كل القوى السالبية العقلية والمادية اضطراراً ، و يُباد الشيطان تلك القوة المزيفة ، جوهر الكذب ، الذي هو العدم المتسربل بالخداع . وسيعمل في تهيئة جو الدينونة ثلاثة عوامل هامة جداً :

العامل الأول : رفع تأثير الزمان ، إذ في القيامة نلبس أجساداً على غير فساد ، لا تفنى ولا تزول ، تستقر فيها النفس متحررة من كل عوامل الخداع ، إنما بوعي كامل وفائق على ما هو الآن ، و بالأخص من جهة الحياة السابقة ، ومن جهة ما هو فوق الزمان بوجه عام ؛ فترتبط دقائق الماضي ببعضها ترابطاً غير منفصل ، فتظهر الحياة السالفة كلها حاضرة ومرئية في نور الحق الإلهي .

العامل الثاني : النسيان ، الذي يتسلل إلينا هنا بعوامل الزمن والتغيير ، لا يوجد هناك . فتصير المعرفة في يقظة شاملة لا يشوبها أي سهو من عوامل خداع النفس أو شيخوخة الوعي ، فتنكشف أمام الإنسان كل حياته بكل أعمالها واتجاهاتها و يدرك كل كلمة خرجت من فمه ، وكل فكرة صاغها عقله وكل مشيئة وسَّعت لها نفسه وارتضى بها ضميره !

العامل الثالث : إستعلان الله في مجد لاهوته ، بفاعلية تتغلغل الكيان البشري بأقوى ما فيه من وعي حيث تظهر لتدخل صاغرة في مجال الكشف والتمحيص ، فيها يواجه كل إنسان الحق ذاته في مواجهة الله ، بحيث لا يعود يستتر شيء من كل ما عمل الإنسان وقال .

وبهذه العوامل الثلاثة تبدأ الدينونة في جو من الوعي الكامل الحاضر المتدفق لكل دقائق الحياة السالفة على ضوء الحق الكامل في الله ، وحينئذ تظهر أعمالنا وأقوالنا ومشيئاتنا على قياس الحق الكامل أمام حضرة القدير ، فندرك في الحال مقدار قربنا منه أو انحرافنا عنه !

قضاء المسيح :

والمسيح سيدين العالم باستحقاق فائق ، لأنه هو الحق والنور والحياة ، فهو يأخذ موقف الديان عن استحقاق ، وليس اغتصاباً ، لأن أعماله تشهد له ، وحياته البشرية أكملها على قياس كامل من الحق ، فلم يعمل خطية قط ولم يوجد في فمه غش !! فهو النور الذي لم تدركه الظلمة ، وجوهر الحياة الذي غلب الموت ، وتزكية قضائه قائمة بشهادة حياته وقيامته ! هذا بجوار كونه كلمة الله الأزلي الخالق الذي ما من خليقة في السماء أو على الأرض إلا وتستمد منه دوام وجودها وتجديدها أو عدمها وزوالها .

وإن كانت حياة المسيح الشخصية كفيلة بأن تكون دينونة بحد ذاتها ، لذلك فمجرد ظهوره لن يُطاق بالنسبة للذين جدَّفوا عليه وأهانوه ، كذلك فإن قداسته الفائقة ستصبح وَبَالاً ورعباً على كل الذين لم يطيعوا الحق بل أخضعوا أجسادهم وأرواحهم للنجاسة .

وكما طلبت الشياطين أن يؤذَن لها في البعد عنه ولو بدخولها الخنازير (لو٨: ٢٦ــ٣٩) ، لأن في ذلك كان راحة لها أفضل من مواجهة قداسته ، كذلك ستكون طِلْبة الذين جحدوه ونجَّسوا ذواتهم الإلحاح المتواصل للخروج من حضرته ، لأنه سيكون لهم في البعد عن القداسة والحق والنور والحياة راحة أفضل !

وهكذا سيدين المسيح الأشرار والفُجَّار والشياطين بمجرد ظهوره واستعلانه في مجده وقداسته ، لا بالقسوة أو الغضب ، وإنما باستعلان لاهوته المتضمن منتهى جوده وإحسانه ورحمته وحبه وكلامه اللين اللطيف الذي احتقره المحتقرون وداسوه وازدروا بقوله وصليبه !

أما ابن الحب والرحمة والسلام ، فسيحل عليه في يوم القضاء فيض الحب والرحمة والسلام ، وأما الذين لم يكن لهم حب ولا رحمة ولا سلام ، فسوف يرتد عنهم الحب والرحمة والسلام ، بل ولا يعودون يطيقون هذه الأمور ، ويحل عوضاً عن ذلك حتماً وبالضرورة « سخط وغضب ، شدة وضيق » (رو٢: ٨و٩) هو من صنع قلوبهم ونسيج

ضمائرهم .

وإذ يكون المسيح الديان لا يزال مبتسماً يقولون له : لماذا جئت لتعذبنا !! و بينما هم في حضرة الحياة يطلبون الموت !! والنور البهيج الذي يشعُّ منه يرعبهم و يزعجهم ، و يسعون وراء الظلمة و يطلبون لو أن الجبال تسقط عليهم أو أن الآكام تغطيهم لتريحهم من وجه الجالس على العرش !

و بينما تكون الدينونة يوم فرح واستعلان لأمجاد الله ومراحمه الدهرية ، يصير هذا بعينه يوم غضب للأشرار لا يستطيعون الصمود فيه أو الوقوف !!

رفع الحق عن الأشرار:

و بينما نجد الحق هنا يعرض نفسه علينا سهلاً رخيصاً ، ولجميع الناس في كل حين ، و يتمادى حاملو هذا الحق وكأنهم يتذللون إلينا مستعطفين لو نذوقه فنأخذه لأنفسنا مجاناً ونأخذه لنحيا به ، و بينما يكادون يلاحقوننا في كل مكان و يتفننون في تبكيت ضمائر العصاة والخطاة بكل وسيلة وكل لغة ، حتى يندم الخاطىء قبل فوات الأوان ؛ نجد هذا الحق ذاته في يوم القضاء يقف وقفة مرعبة يطالِب بثمن تذلُّلاته السابقة ، وكأنما قد خلع ثوب الشحاذة التكري ليلبس القضاء ويجلس ليدين !

عجبي على هذا الحق الذي يقف الآن في كل زوايا الدنيا ، يجذب إليه القلوب بالإتضاع واللين العظيم ، كيف سيتوقف يوماً ليلبس وشاح قضاء لا يلين !!

إنها خدعة الحرية التي تعرض إمكانية رفض الحق في هذا الدهر لكي يمتنع هذا الحق عينه وإلى الأبد على الرافضين حيث يكون الندم والبكاء بلا رجاء .

نماذج لشهود الحق :

لقد سبق المسيح وأعلن أن الأعمال التي كان يعملها يستطيع مَن يؤمن به أن يعملها و يعمل أعظم منها باسمه بواسطة الآب ، وهكذا لم يترك المسيح الحق بلا شاهد على

مستوى الحق ذاته أو على مستوى الديان « القديسون سيدينون العالم » (١كو٦: ٢) . ومن أجل ذلك نفخ المسيح في تلاميذه من روحه ، فصاروا شهوداً للحق « في أورشليم ... والسامرة وإلى أقصى الأرض . » (أع١: ٨)

وشهادة يسوع هي الحق ، وهي « روح النبوة » ، وهكذا تتلمذوا للحق شهوداً في كل الأرض . هؤلاء هم النماذج الصالحة التي ستوجد مزكّاه عن يمين الديان شهوداً للحق ومادة حية لقضاء الدينونة ، وشهادتهم لا تكون بالكلام أو البرهان ، ولكن بمجرد قيامهم ووجودهم مكرّمين عن يمين الحق !

الأحكام التي سنُدان بمقتضاها :

والأحكام التي سنقف لنُدان بمقتضاها هي بذاتها التي تُتلى على مسامعنا كل يوم بإعلان واضح وبطرق ووسائل عديدة متنوعة . فكلمة الله المكتوبة والمقروءة تأتي إلينا كل يوم تحمل الحق ترغيباً وقضاءً معاً ، بقوة زاخرة قادرة مقتدرة كسيف ذي حدين يستطيع أن يخترق كل أغلفة العالم الكاذبة لتبلغ القلب الذي يطيعها لو أراد !!!

وصورة المسيح مصلوباً تبكيت متواصل للمدمنين على الخطية والعصيان ، فكأنما الجسد الممزق على الصليب يشرح درس الدينونة بصمت رهيب يستطيع أن يحطم الأرض والسماء ، لأن ثمن الخطية استلزم موت القدوس ، فكم سيكون عقاب مَن استهان بالثمن !!

أما الأنبياء والرسل والشهداء والقديسون ، فهم النموذج المشجِّع للمتشككين ، فقد قدّموا حياتهم على مذبح الحب والطهارة رخيصة ، واستهانوا بالعالم والجسد وداسوا كل قوة العدو المعاند ، وعبروا بهدوء وضياء .

والعِبَر التي تذخر بها أجيال السابقين واللاحقين والتي تقع تحت بصر كل إنسان من بؤس الخاطىء ، وسعادة المؤمن ، وعدم راحة الأشرار وانزعاجهم ، وسلام الأبرار

وطمأنينتهم ، واحتقار المتعظمين وتزكية المتواضعين ، وافتضاح كل السائرين في طرق الكذب والخداع ، ونجاح المتمسكين بالحق والإستقامة ؛ كل هذه وألوف غيرها من الملاحظات التي يلمحها الضمير بلا عناء تقف الآن في هذا الدهر تعلن إعلاناً عن صدق كل مواعيد الحق والبر والتعفُّف . فإذا أخذنا بها وسرنا بمقتضاها ، صارت هي بجملتها عزاءً لنا في الزمان الحاضر وإكليلاً معدًّا هناك في الدهر الآتي .

أما إذا تنكَّرنا لها واستثقلناها وأهملنا وازدرينا بوعودها ، فإننا نفقد عونها وكرامتها في هذا الزمان ، وتصير هي بذاتها مادة للدينونة المخيفة والعقاب الأبدي الذي لا يُطاق .

إتصال الدينونة بالحياة الحاضرة :

ليست الدينونة حالة منفصلة عن الحاضر ، وكأنها أعمال ما بعد الموت . ولكن الحقيقة المرَّة أن الدينونة تبدأ تنسج خيوطها في حياتنا منذ الآن ، وتسجِّل علينا أقوالنا وأعمالنا ونياتنا لتسبقنا إلى هناك .

فالذي يُقبل إلى الحق من الآن ، يثبت الحق فيه ويحرره ، وفي الدينونة يجذبه إليه ويحميه و يشهد له ؛ والذي يرفض الحق هنا يتعبد للباطل قهراً ، وفي الدينونة يصير غريباً عن الحق ولا يستطيع أن يقبله أو يقترب إليه بل ينشأ نفور متبادل .

الذي يسير في نور الحق ، يتجدَّد للمعرفة و يأخذ منذ الآن ملامح صورة خالقه في البر وقداسة الحق (أف ٤ : ٢٤) ؛ و يؤهَّل للتبني ، وتنفتح عيناه على النور الأبدي . أما في الدينونة ، فيلتحم بالنور و يتأهَّل لدينونة ملائكة الظلام « ألستم تعلمون أننا سندين ملائكة !! » (١ كو٦ : ٣)

أما الذين أحبوا الظلمة أكثر من النور وارتبكوا في ملذات هذا الدهر وشهوات الباطل ، فإن عيونهم تخفق أن تتحسس نور الحياة ، وقليلاً قليلاً تنعمي أبصار قلوبهم فلا يعودون يرون الحق ولا يميلون إليه ، هؤلاء يصيرون في يوم الدينونة كالأعمى مريض

العين الذي لا يطيق شعاع النور، هؤلاء يهربون إلى الظلمة الخارجية .

والذي أحب المسيح وقَبِلَ كلمة الحياة الأبدية في هذا الدهر، يثبت في المسيح ، والمسيح يعلن له ذاته ، حيث يبذر فيه بذرة الخلود ليصير كمولود جديد من الروح والحق ، و يقوم في اليوم الأخير لميراث التبني في الحياة التي انبثّت منذ الآن في كيانه !!

أما الذي ازدرى هنا بالحياة الأبدية ، فيصبح بالنسبة لها ميتاً ، لا يكاد يصدّق بوجودها ، وفي الدينونة لا تعود تعمل فيه هذه الحياة الأبدية بمواهبها اللانهائية !!

وهكذا نرى أن الدينونة هي تكميل عادل واستمرار طبيعي لنوع الحياة التي سرنا فيها وصنعناها لأنفسنا سابقاً في هذا الدهر، إنما بانتقال فائق من الأقل إلى الأعظم ، من نور الوصية إلى نعيمها .

موقف الأشرار:

حينما يقوم الأشرار للدينونة ، يستيقظ فيهم وعي الحياة السالفة بلا نسيان مع استعلان الحق الإلهي بآن واحد . حينئذ يصيرون في رعب عظيم من الحق الذي يبدأ يبكت رياءهم وكذبهم ، ومن النور الذي يفضح أعمالهم و يوبخ نجاساتهم و يُعيِّرهم بانغماسهم في شهواتهم الفاسدة ، أما الروح الذي كان يعمل فيهم للإنذار والتبكيت ، فيبدأ يشهد عليهم علناً أنهم بنو ظلمة وأولاد لعنة مدعوون للهلاك !!

ومع أن الجالس على العرش لا يزال هو الخروف الوديع القائم كأنه مذبوح من أجل الخطاة والحبيب الذي لا تزال تنبعث من عينيه الرحمة والمسرة والحنان من أجل كل بني الإنسان ، إلا أن رحمته لا يعود الأشرار يرون فيها إلا نوعاً من الفرص الضائعة التي انبرت عدواً للتبكيت يحمل لهم استعلان غضب عظيم . أليسوا هم الذين أهانوا الرحمة في زمن الرحمة ؟

لذلك فهم لا يكفُّون عن الصراخ طلباً للخروج من حضرته ، لأن نجاساتهم تمنعهم

من احتمال البقاء في حضرة قدسه ، و يطلبون بإلحاح أن يؤذَن لهم بالخروج ، حيث الظلمة الخارجية تكون حالة أكثر احتمالاً من نور حضرته . أما هو ، فمن أجل الرحمة يأذن لهم بالذهاب عنه ، حيث الظلمة الخارجية وصرير الأسنان .

وإن كان شعب إسرائيل المختار لم يطقْ أن ينظر وجه موسى حينما خرج من لدن الله ، وقد انعكس نوره الإلهي على وجهه ، فكم تكون حالة أبناء الظلمة حينما يوجدون قسراً في مجال نور وجه الله الديان !!

وإن كانت الشياطين صرخت من هول استعلان الله في هيكل جسده الضعيف ، فكم تكون حالة أولاد إبليس حينما يظهرون أمام الله في مجده كديان ؟

وإذا كان اسرائيل الذي تقدَّس واستعد لملاقاة الله لم يستطع سماع صوت الله واستعفى من الكلام الذي أرعبه جداً ، فكم تكون حالة الخطاة وهم بعد في نجاساتهم ، حينما يؤخذون بغتة ، و يسمعون صوت الجالس على العرش ؟

من أجل هذا سيكون استعلان المسيح ، حتى وهو في حالة مجده ، مرعباً جداً بالنسبة للذين لم يتوبوا وأخذهم الموت بغتة .

طبيعة الثواب والعقاب في الخلود :

إن الأبرار سيفرحون جداً بمنظره حينما يتراءى في مجده ومجد أبيه مع ملائكته ، لأنهم ينظرون إليه فيرى كل واحد وواحد نفسه وقد انطبعت صورتها على وجهه ، فتبدو طاهرة « لا دنس فيها ولا غَضْن أو شيءٌ من مثل ذلك » (أف ٥ : ٢٧) ، لأنه مكتوب أنه « إذا أُظهر نكون مثله » (١يو٣ : ٢) . نعم سيفرح الأبرار بالحق حينما يرون أسماءهم منقوشة على كفه ، ولا يجدون في العبور إليه مانعاً إذ تجذبهم إليه محبته التي اقتنوها في قلوبهم ، ولا يخشون من الإقتراب إليه لأنه يكون لهم جراءة وقدوم بالحق ، الذي آمنوا به واعتمدوا منه فنالوا الروح الذي فيهم !! وحينما تتيقظ ضمائرهم في نور حضرته وفي

استعلان حقه ، يحسون وكأن دم المسيح قد ابتلع الخطية إلى فناء ولا يجدون في ماضيهم المكشوف إلا ثوباً مبيَّضاً في دم الخروف . لا يذكرون تعدياتهم فيما بعد ، ولا آثامهم تُحسب ؛ وكما يتلاشى الزمان من كيانهم حينما يَلِجون أعتاب الأبدية ، يتلاشى الحزن والكآبة والتنهد . وكما انفصل المسيح عن الخطاة وصار أعلى من السموات ، كذلك سنكون نحن أيضاً ، لأنه وإن كنا لا نعرف بعد ماذا سنكون ، إلا أننا متأكِّدون أنه متى أُظهر سنكون مثله (١يو٣ : ٢) !!

وفي غمرة أفراح الأبدية وبهجة استعلان حقائق وأسرار الخلود ، لا يعود الإنسان يذكر أشباه الحقائق التي عاش فيها سابقاً ، بل يحيا في قوة الحق الحاضر بجماله وكأنه قد صار جزءاً فيه .

وحينما يرى الإنسان البار ذاته في المسيح ، لا يفقد كيانه كأنه يتلاشى بذاته ، بل يحس كمَن صار متحداً في مجده ، وكأن المسيح حالٌّ فيه ، فينطلق بالفرح في تسبيح وشكر يدوم إلى الأبد . ثم يرى الجميع مثله تماماً يجمعهم الفرح والتسبيح مع أن كل واحد له في المسيح بقدر ما نال ، لأن فيه منازل كثيرة ، ولكنها منازل متمايزة في المجد . ولكن كل واحد يرى منزلته وكأنها الحظوة القصوى ، فيصير وله اكتفاء في ذاته ، وامتداد لا ينتهي في المسيح :

ــ إكتفاء في ذاته ، لأنه لا يجد عوزاً في شيء ، لأنه لا يرى أحداً آخر وكأنه أعلى منه ولا مَنْ هو دون عنه ... لأن المسيح يملأ الكل في الكل ... (١كو١٥ : ٢٨ ، أف١ : ٢٣ ؛ ٤ : ١٠) .

ــ أما امتدادنا الذي لا ينتهي في المسيح ، فلأنه مصدر الحق اللانهائي الذي تتحد به النفس البشرية كامتداد الأضعف في الأعظم ، فتظل تكتسب من المعرفة للحق إلى مالانهاية ، وتظل تمتد امتداداً لا يشمله تغير ، لأنه خُلْوٌ من الزمان والمكان ، باستنارة متزايدة في الحق ، يكون الحق فيها علَّتها وهو هو غايتها وهذا هو ميراث النفس السعيد .

و بقدر ما تنال من الحق تزداد فرحاً وتسبيحاً ولن يكون لإمتدادها في الحق نهاية ، ولن تحس بالحرمان والعوز حتى في سعيها ونموها في الحق ، لأن كل درجة تصل إليها تدفعها إلى ما بعدها !

أما الذين أحبوا الظلمة أكثر من النور، وأبغضوا الحق ، ومالأوا الإثم والكذب ، فحينما يشخصون في وجه السيد القدوس و يسطع نوره وحقه على قلوبهم تنكشف أستارها وتفتضح أفكارها و يغشاهم الخزي المريع ، فيرتدُّون بعيداً عن النور و يستعفون من رؤ يا وجه الحبيب ، والوجود في حضرته ، و يكون لهم ما يريدون ، كما كان للأرواح النجسة قديماً ، حينما طلبوا أن يهربوا من وجهه و يدخلوا قطيع الخنازير بعيداً فأذن لهم ، رحمةً منه . وسيظل المسيح هكذا رحيماً وإلى أبد الآبدين ، حتى وعلى أشد العصاة المتمردين ، ولكنها رحمة تحمل في طياتها اختيار البقاء في الحرمان بعيداً عنه ، عقاباً أبدياً للذين رفضوا قبول الحق والتآلف مع النور والحياة معه .

وهكذا كما طلبت الشياطين أن يؤذَن لها بالدخول في قطيع الخنازير، إذ في ذلك كان راحة لها ، كذلك ستكون راحة الخطاة في بكائهم ، ولا يتعزون إلا بصرير أسنانهم ، ولا يرتاحون إلا في الظلمة بعيداً عن الحق والنور وحضرة الله القدير، لذلك سيطلبونها ، و يلحُّون في طلبها ، لأنها ستكون أكثر راحة من عذاب الحق المستعلَن لهم في حضرة الله .

* * *

قد يختلط هنا الحق بالباطل وتنتفخ أعمال الظلمة على أعمال النور، و يضطهد المتعظمون المستضعفين والمساكين بالروح ، أما في الدهر الآتي فستكون الفُرقة والإنفصال الأبدي ، فلا يعود يحيا أصحاب الحق إلا بالحق ، وما أجله وما أسعده ، ولا يعود يحيا أصحاب الباطل إلا في الباطل ، وما أشقاه وما أتعسه .

والحياة تصير للأولين حقاً مستعلَناً في الله ، بلا نهاية ، وسعادة لا يشوبها أي تعطيل ، وللآخرين باطلاً وجهلاً مطبقاً لا يشرق عليه نور.

في هذا الدهر ندرك خطورة ومرارة الرفض الإلهي العتيد أن يكون للمستبيحين والمستبدين في الدينونة المزمعة أن تكون ، ونستطيع أن ندرك ذلك إدراكاً صحيحاً دقيقاً واعياً ، ونستطيع أيضاً أن نتداركه قبل فوات الأوان بإمكانيات سهلة حاضرة ، لذلك وضع السيد المسيح وصاياه وتحاذيره ، ووصف مخاطر العناد والرفض بأوصاف نستطيع أن نحسها الآن وندركها بحاسة الحق الذي فينا و بإحساسات المنطق والضمير والقياس على كل فعل ورد فعل .

ولكن كل هذه الإمكانيات ستزول نهائياً ، عندما نُستدعى لنقف أمام كرسي الديان ، ولا تعود فرصة لمعرفة أو فرصة لإختيار.

النار والدود والخطايا :

والنار والدود هي إحساسات نفسية وذهنية تنعكس آلامها على الجسد غير المائت فيصيبه منها ما هو أكثر من النار المادية والدود الأرضي . فلا النار تفارق الإحساس ولا التصور، ولا الدود يكف عن نهش أجسادهم غير المائتة .

ولو كانت النار والدود موضوعات مادية لهان الأمر، ولكنها حقائق نفسية داخلية ، كما يحدث في هذا الزمان حينما يصاب الإنسان بالجنون ، فإنه يحس بنار أو بحيات أو عقارب أو ميكروبات تنهش في جسده ، فيصرخ منها بفزع أليم ، ويحس بأوجاع نفسية وجسدية معاً ، ويهرب ولا مطارد ؛ وعندما يحاول أقرباؤه أن يقنعوه أنه لا يوجد شيء أمامه مثل هذا ، فإنهم يكونون عنده كمجانين مازحين ، لأنه يحس بها إحساساً قوياً مؤلماً ، و يراها بعينيه ، و يشير إليها بأصبعه ، ولكن هيهات أن يهرب منها ! فهي تتعقبه أينما سار ولن يعتقه من صراعه الأليم إلا الموت... ولكن ليس موت في الدهر الآتي ولا أمل .

كثيرون يعيشون في هذا العالم بإحساس شديد من نحو الخطية وهي لا تكاد تفارقهم لحظة حتى أثناء نومهم ــ وهي تتمثَّل لهم في حديث الناس الهزلي وفي حديث الناس الجدي ، كأنما يتحدثون عنها ، وكأن الجميع يشيرون عليهم أنهم خطاة .

والإنسان في هذه الحالة لا يكاد يستقر في مكان ، ولا يطمئن لإنسان ، ولا يستمتع بأي شيء من خيرات العالم الكثيرة ، وكأن العالم أصبح له جحيماً لا يُطاق لا يرى فيه أي خير أو حق . وهذه الحالة ، ولو أنها مرضية ، لكنها صورة قريبة للحالة التي سيواجهها الخطاة في الدهر الآتي ؛ فخطاياهم ستصير ماثلة أمامهم دائماً تسير أمامهم وتتعقبهم .

خلود الأشرار:

وليس للأشرار خلود خاص غير الخلود العام . فالخلود هو الوجود وسوف يشترك فيه كل ذي نفس خالدة مهما كان مقبولاً أو مرفوضاً .

ولكن كما أن هذا العالم يحوي السعيد والبائس ، وشمس واحدة تشرق عليهما ؛ كذلك في الخلود . ولكن الفرق بين الخلود والزمان الحاضر فرق طفيف ، هو زوال الصورة المتأثرة بعوامل الزمن والتغيير ، و بقاء جوهر الأشياء والمخلوقات الخالدة التي لن تتغير طبيعتها بزوال الزمان والمكان .

فالعالم الحاضر صورة مادية تحوي في كيانها حقيقة الوجود ، وسوف يفقد العالم الحاضر صورته المادية المتغيرة والزائلة ، ليصير إلى الوجود غير المادي غير المتغير .

وخلود الأشرار يكون امتداداً لوجودهم الحالي ، بكيفية ما ، ولكن بغير الزائل والزائف الذي أحبوه وألفوه وعبدوه . لذلك سوف يكون وجودهم خالياً من مسراتهم التي أوقفوا عليها كل رجائهم غشاً وخداعاً .

أن نؤمن بالله، فنحن نؤمن أنه قادر على كل شيء، وأنه حكيم، وأنه عادل، وأنه رحيم، وأنه محب.

والإيمان بالله يستلزم أن نثق بكل صفة من هذه الصفات ونعمل بها في حياتنا. والإيمان ليس ضرورة تعسفية لإرضاء سلطان الله، ولكنه هو سر سعادة كل مَن يؤمن بمسرة وعن رضى. وإن كان الله قد حتَّم بالإيمان على البشر، فذلك بدافع أهم صفة من صفاته وهي المحبة، لأنه إذ يحب الإنسان كخليقة ممتازة عنده، لذلك يدعوها في إصرار المحبة أن تؤمن به حتى تسعد بوجوده، وتكمل القصد المبارك الذي خلقها من أجله. فالله خلق الإنسان ليسعد بصفات الله التي كلها خير وصلاح.

وواضح الآن كل الوضوح أنه لما انحصر الإيمان وضعف في قلوب الشعوب، بدأت تكثر أحزان الإنسان، وبدأ شبح الحرمان والمجاعات والحروب والدمار يزحف على المسكونة كلها. وسوف يتأكد العالم كله، في لحظة ما، أنه من المستحيل أن يسعد الإنسان بدون الله.

إعادة الطبعة الأولى سنة ١٩٩٣
الثمن جنيهاً واحداً